روايات رومانسية عالمية

حبير

المجهول

بين
الحقيقة والوهم خيط غير
مرئى وبين الحب والعاطفه خطوة
قصيرة. لم يبدع دان ترافورد فى مهنه الطب
وحسب بل وفى اغواء النساء ايضا. لكن جيسيكا
الطبيبة الشابة القادمة حديثا الى المدينة قررت ان تظل
بعيدة عن شباكة المغرية حتى لا يضاف اسمها الى لائحه
فتوحاته. المشكلة انه أبى ان ينظر اليها كأمرأة. فتحدته.
سلاحها ثقتها بنفسها وقدرتها على التحكم فى عواطفها..
لكنه لم يدخر جهدا ولا حيلة ليجردها من سلاحها.
القلعة المحصنه جهدا تبقى, الا اذا طال الحصار..
ويأتى الانهيار, حاده, من الداخل.

مكتبة حبير

جمهورية مصر العربية - القاهرة
ش. ع النبى محمد عابد - خلف الجامع الأزهر
٥١٤٢٩٥٥ - موبايل ٠١٢٣٧٨٦٤٧٠

١ ـ جسيكا نيل كانت عرضة لملاحقة الكثيرين من الأطباء بسبب قلة الطبيبات الجميلات مثلها. ولكن اهتمامها كان ينصب على التفوق في مهنتها غير مبالية بكل ما يمت بصلة الى أنوثتها. . .

تهادى جوناثان نيل على المقعد الجلدي خلف مكتبه الفاخر باضطراب وتململ واضحين وألقى نظرة فاحصة على ابنته جسيكا الواقفة في وسط الغرفة، لا تحرك ساكناً. لقد أثار قرارها شجوناً قديمة في نفسه، ونبش صفحات من الماضي طالما تمنى ألا تعود، فبدا مغموماً، في عينيه أصداء قلق عميق، وعلى شفتيه أشباح كلمات يحاول خنقها قدر المستطاع.

اليوم قررت ابنته التقدم لوظيفة شاغرة في مدينة لويزفيل كطبيبة مساعدة للدكتور اوبريان وشريكه. جاءت لتعلمه بخطوتها لا لتأخذ برأيه، فهو أعلم الناس بابنته وبصعوبة تراجعها عن أي قرار تتخذه.

زفر الأب العجوز زفرة طويلة ورفع حاجبيه سائلا:

ـ وماذا عن قرارك، التخصص في طب الأطفال؟

اجابت جسيكا بحزم ممزوج باللوم:

ـ كان هذا قرارك يا والدي من غير ان تستشيرني.

تردد صدى كلماتها في ارجاء الغرفة، وأحست انها أخطأت في اختيار عبارتها. لم تقصد ان تنفض الغبار عما حدث يوم قرر أخوها جايمس، الذي يكبرها باربع سنوات، العدول عن اكمال تخصصه في الجراحة العامة كوالده مفضلا الالتحاق بكلية الهندسة. يومها لم تخف خيبة جوناثان نيل على احد، لكنه كتم غيظه وجاهد في اخفاء قنوطه حتى لا يشكل موقفه عثرة في مستقبل ابنه البكر، الابن الذي اراده ان يجسد الحلم ويحمل اسم العائلة بعده في ميدان الطب.

منذ حداثتهما، عمل الوالد الطبيب، على تنشئة ولديه تنشئة صالحة

وحاول منذ بدئهما دراستهما الثانوية جذبهما الى حقل الطب، وما ان أوشك على قطف ثمرة محاولاته حتى فوجىء بقرار جايمس. لكن خيبته لم تدم طويلا وحلت مكانها فرحة عامرة عندما انبأته جسيكا بعزمها على دخول معهد الطب وسلوك نفس الطريق الذي بدأه منذ أربعين سنة.

والآن ولما تكتمل الفرحة بعد، ها هي تواجهه بقرار موجع آخر لا تدري ما ستكون عاقبته.

مسح جوناثان وجهه براحة يده وكأنه يطرد صوراً قاتمة من مخيلته، وتطلع الى ابنته الحسناء بحنان:

- هل اسأت التصرف معك يا جسيكا؟

أدركت ان الفرصة سانحة لتكفر عن فظاظة عبارتها السابقة، فأجابت بتودد:

- ما هذا الكلام يا والدي؟ أنت نعم الأب ولن أنسى أبداً ارشاداتك لي واهتمامك بمستقبلي.

أكمل العجوز بألم ما أحجمت ابنته عن قوله:

- وتعتقدين ان الوقت حان لتستقلي. أليس كذلك؟

- عليّ ان أشق طريقي بمفردي واختار ما أظنه الأفضل.

خيم صمت ثقيل على القاعة، وغرق الاثنان في سكوت وتردد. فجأة، نهض الوالد عن مقعده ومشى نحو المكتبة الزاخرة بكتب الطب القيمة وصاح بصوت أجش تخنقه الغصة:

- ويحك يا جسيكا. لا يعقل ان يهدر شخص بمستواك الثقافي حصيلة علمه وجهده في مكان مزرٍ كلويزفيل.

- لا أظن ان انتقالي الى لويزفيل سيهدر مستقبلي يا والدي، بل سيتيح لي الاطلاع على حالات كثيرة ومختلفة تساعدني على اكتشاف مدى تقدمي كطبيبة.

- بامكانك اكتشاف ذلك هنا، في هذه المستشفى.

اجابت الابنة بعناد عكسته عيناها الباردتان:

- كلا فأنا لم أفعل ما يستحق الذكر طوال العامين المنصرمين ولم أعاين في هذه المستشفى سوى مرضى لم يكترث لهم بقية الأطباء لأن حالتهم لا تدعو الى القلق، وبالتالي لا فائدة لهم منهم.

وأضافت بمرارة:
- تدربي هنا لم يفدني على الاطلاق.
- هذا تهجم فاضح يا جسيكا.
- انها الحقيقة يا والدي.
التقت عيونهما للحظات قصيرة، التقطت خلالها انفاسها وتابعت بلهجة حانقة:
- الأطباء هنا متشدقون يلهثون وراء المال والشهرة بأساليب قذرة ضاربين بجوهر هذه المهنة النبيلة عرض الحائط.
علق جوناثان بتحدٍّ:
- أتعتقدين ان الأمر مختلف في لويزفيل؟
- لدي من الأسباب ما يحملني على هذا الاعتقاد.
أدرك العجوز عقم الجدال فعاد الى المقعد وأسند رأسه الى حافته:
- يبدو انه كتب لي أن أصاب بالخيبة مرة بعد مرة.
لم تبال جسيكا بما قال:
- أظن ان وقع الأمر على أمي سيكون قاسياً.
- هل تريديني ان أفاتحها بالأمر؟
رفعت رأسها دلالة على الرفض مقتربة من مقعده برشاقتها المعهودة، وقالت بحنان:
- سأطلعها على الأمر بنفسي، الليلة بعد العشاء مباشرة.
عند عودتها الى المنزل اتجهت جسيكا الى غرفتها وارتمت بارتياح على السرير. لقد تخطت لتوها العقبة الأولى ولم يبق امامها سوى والدتها المعروفة بصعوبة مراسها، لكنها لن تدخر جهداً لنيل موافقتها ولو كلفها ذلك خاصمتها.

استحممت وبدلت ثيابها ثم وقفت امام المرآة الكبيرة. لم تعتد الاهتمام بنفسها، او صرف وقت طويل في التبرج كغيرها من الفتيات، مفضّلة ارتداء ما يريحها من الملابس من غير ان تأبه يوماً للون او للزي، فلديها القدر الكافي من الجمال وشعرها الكستنائي المتهدل بفوضى صارخة على كتفيها يزيدها انوثة واغراء. وعيناها الداكنتان الواسعتان فوق أنفها

الصغير تضفيان على محياها سحراً وجاذبية.

تذكرت أيام الدراسة عندما كانت محط انظار الشبان، وانتقالها الى المستشفى حيث كانت عرضة لملاحقة الكثيرين من الأطباء بسبب قلة الطبيبات الجميلات. لكنها لم تترك نفسها أبداً تنجرف في علاقة مع أي منهم. فقد انصب اهتمامها على انهاء تخصصها في أسرع وقت واثبات مقدرتها في التفوق على أقرانها غير مبالية بكل ما يمت الى انوثتها بصلة.

جلست جسيكا الى المائدة من غير ان تمد يدها الى الطعام مكتفية بتناول كوب من العصير، تسترق النظر بين الحين والآخر الى والدتها متحينة الفرصة لمفاتحتها بالأمر. اخيراً جاءها العون من والدها، الذي انهى طعامه وتوجه لتمضية عدة ساعات في المكتبة كعادته في كل مساء، تاركاً اياهما بمفردهما.

استمعت اميليا نيل الى ابنتها وهي تبين لها فوائد الانتقال الى مدينة جديدة شاكية اليها رتابة العمل في مستشفى والدها. ولما انتهت جسيكا من تعليل قرارها سألتها والدتها بعصبية:

- وهل يعلم والدك بالأمر؟

- أجل، تباحثنا بالأمر اليوم بعد الظهر.

ازداد فضول الأم لمعرفة موقف زوجها فاستفهمت:

- وماذا كان جوابه؟

- أظنه وافق في النهاية.

- لا عجب في ذلك، فلا احد يجاريك في عنادك يا جسيكا.

مضت الأيام سريعة مقربة موعد رحيل جسيكا، من غير ان يبدر منها ما يوحي بعدولها عن قرارها. من جهتهما، تجنب الوالدان الخوض في موضوع السفر مفضلين تجاهل الأمر، وحذت ابنتهما حذوهما فصارت تتعمد التغيب عن المنزل وقضاء أطول وقت ممكن في المستشفى.

وفي الليلة الأخيرة لجسيكا في جوهانسبرغ التقى الثلاثة على مائدة العشاء في جو مشحون بالقلق والغم. بعد ساعات معدودة ستترك الابنة الوحيدة المنزل مخلفة وراءها فراغاً من المستحيل ملؤه، وشعوراً بالخيبة يصعب التغلب عليه.

قطع صوت جوناثان الأجش حبل الصمت ضارباً بقبضتيه بعنف

على الطاولة:

- انت مجنونة يا جسيكا لتقدمي على هجر مدينة كجوهانسبرغ والتخلي عن الفرص الهائلة المتاحة لك فيها. ان كنت تسعين للعمل بمفردك، فأنا مستعد لتدبير عيادة مستقلة لك، لكن ان تدفني نفسك في بقعة قصية، فهذا أسخف ما سمعته أذناي حتى الآن.

وعاود ضرب الطاولة بقبضته مطيحاً بالاطباق الموجودة امامه وأردف:

- هذا عمل أخرق لا يعقل ان يصدر عن احد من سلالة جوناثان نيل.

تبادلت جسيكا ووالدتها نظرات قلقة، ابتسمت بعدها الطبيبة الشابة بفتور:

- أشكر لك اهتمامك وتفانيك في الاعتناء بي يا أبي. لكن قبل البحث عن عيادة والاستقلال في ممارسة المهنة، عليّ ان أحصل على الخبرة اللازمة. مضى عامان على عملي في المستشفى من غير ان تتاح لي الفرصة لأتحقق من قدرتي كطبيبة، وهذا ما أتوق الى تحقيقه في لويزفيل.

- وهل كان عليك الارتباط بعقد لسنة كاملة؟

- انه أحد شروط الوظيفة وأنا سعيدة به...

قاطعتهما الأم خوفاً من انعكاس الجدل على صحة الوالد العجوز، وسألت ابنتها بحنان:

- وماذا عن موضوع الزواج يا ابنتي؟

- الزواج؟

- اجل الزواج. خلال الأعوام الماضية كنت أكتفي بالاستماع اليكما تتناقشان امور الطب ومستقبل مهنتك كطبيبة. والآن اكتشفت ان كثرة انهماكك في عملك أنساك انك امرأة.

فوجئت الابنة بالسؤال فردت من غير تفكير:

- طبعاً يا أمي، انما...

- اذن، هلا أوليت الموضوع جدية واهتماماً كافيين؟ ستناهزين الثامنة والعشرين عما قريب ولن تبقي شابة مدى العمر.

ضاق جوناثان ذرعاً بالكلام عن الزواج وهناك أمر يفوقه أهمية، فهتف بتململ:

- بربك يا اميليا، ألا يمكن تأجيل هذا الموضوع؟ أمامها الوقت الكافي

للتفكير بالزواج.

التفتت الأم الى زوجها تستميحه عذراً لمعارضتها كلامه:

ـ لا يا جوناثان، فالوقت يمضي بسرعة. أتظن اني لم ألحظ خيبة أملك بعد قرار جايمس ترك الطب؟ او اني لم انتبه لتحولك الى جسيكا بعدما أحيت فيك حلمك الأكبر وأمنيتك الغالية، وقررت دراسة الطب؟ لكنك نسيت عاملا في غاية الأهمية يا عزيزي، وهو كون جسيكا امرأة.

ضحكت جسيكا تحاول التخفيف من حدة الموقف:

ـ وكم أنا سعيدة بذلك!

ـ ما رأيك اذن بعريس لائق فتفرحين قلبي والدين عجوزين بأحفاد جميلين مثلك؟

ـ قريباً تتلقين هذا النبأ السار من زوجة جايمس.

صرخت اميليا بعدما نفد صبرها:

ـ ليس جايمس من يهمني الآن، بل أنت.

نظرت جسيكا الى والديها والدمع يكاد يطفر من عينيها:

ـ لا يمكنني ان أعدكما بشيء قبل عثوري على الشخص المناسب.

ـ وكيف ستعثرين عليه وأنت تعاملين الشبان كما لو انهم عينات صغيرة تحت عدسة مجهرك؟

ـ أعتقد اني لن أفكر بعدسة المجهر حين ألتقي الشاب المناسب.

ـ أرجو ان تكوني صادقة في ما تقولين يا دكتورة.

رمقت الابنة والدها بنظرة دلال تستحثه على الكلام ومد يد العون اليها، وللمرة الأولى منذ أيام تلحظ في عينيه بريقاً ضاحكاً وهو يطوق خصر زوجته بذراعه يسألها بتحبب:

ـ هل نظرت اليك يوماً كعينة تحت المجهر؟

ردت اميليا على الفور:

ـ أبداً يا عزيزي، فقد عملت منذ البداية على ان أكون دائماً فتاة احلامك فلم تحتج الى المجهر أبداً.

ـ أمي. أتعنين انك...

توردت وجنتا الوالدة خجلا وارتباكاً فسارعت الى مقاطعة ابنتها بلهجة ناهية:

ـ لا تجنحي في خيالك يا جسيكا، ولا تحاولي تغيير الموضوع.

سارع جوناثان الى توضيح ما قالته زوجته:

ـ ما عنته والدتك في كلامها، انها لم تجعلني يوماً أشعر بتقدمنا في السن، فبعد كل هذه السنين أحس وكأننا في بداية علاقتنا. أليس كذلك يا عزيزتي؟

حدجتها اميليا بنظرة ثاقبة وتمتمت بتوعد:

ـ احساس غريب ينبئني بأنكما تسخران مني.

ضحكت الابنة بدلال وتقدمت من والدتها تغمرها:

ـ لم نستطع تجاهل الحقيقة، أليس كذلك يا أبي؟ فبالرغم من سنك ما زلت تتمتعين بقسط وافر من الجمال، وخاصة حين تتورد وجنتاك.

ـ لا تكوني سخيفة. كنت أحاول...

أيقنت جسيكا ان الأمر تعدى حدود المزاح فقاطعتها بلطف:

ـ أعرف يا أماه، فالحب الحقيقي هو المعاملة قبل ان يكون الكلام. انه توافق القلب والعقل على اختيار الحبيب. هذا ما سأطبقه حين أقع على الانسان المناسب. فانجذاب الواحد نحو الآخر لا يكون تاماً الا حين يتأثر القلب والعقل في آن معاً. لذلك أفضل عدم الارتباط بأحد حتى أعثر على من يتمتع بهذا القدر من الجاذبية.

بدا الوالدان مقتنعين بكلامها فتخليا عن مناقشة موضوع الزواج.

وعادت اميليا تسألها عن السفر:

ـ أين ستقيمين في لويزفيل؟

ـ وضع الدكتور اوبريان الطابق السفلي من منزله في تصرفي. انه كما وصفه لي، صغير الحجم لكنه يفي بالغرض. لدي هاتف مستقل وأملك صلاحيات واسعة لاحداث تغييرات فيه.

علق الأب بحسرة لم ينجح في كتمها:

ـ أرجو ان يكون القرار لصالحك يا ابنتي.

عاد الصمت يلقي بثقله على الغرفة، فنهض جوناثان عن مقعده متوجهاً نحو الحديقة، بينما انهمكت جسيكا ووالدتها في حمل الأطباق الى المطبخ للتفرغ بعدها لحزم الحقائب التي سترسلها الابنة في القطار الى لويزفيل.

في صبيحة اليوم التالي. وقفت جسيكا أمام مدخل المنزل، يلفح وجهها

الهواء البارد، مودعة والديها. ثم انطلقت بسيارتها بين خطوط الجليد، المرسومة على حافتي الطريق وسطوح المنازل، متجهة شمالا الى لويزفيل. لحظات الوداع صعبة ويد والدها تلوح لها ما زالت امام ناظريها، ودعاء أمها لها بالتوفيق ما برح صداه يتردد في أذنيها. لكنها لن تتراجع عن قرارها ولن تدع العاطفة تقف حاجزاً بينها وبين المستقبل.

لم تكد تبتعد عن جوهانسبرغ حتى شعرت بأطرافها تكاد تتجمد بالرغم من تشغيلها جهاز التدفئة، لكنها لم تأبه بذلك وراحت تشغل نفسها بمنظر الوشاح الابيض وقد غطى البسيطة في حياكة رائعة.

أحست بتغير طفيف في الطقس فور اجتيازها جبال السوتبانسبرغ وانحدارها في الطريق العريض ناحية الوادي حيث وجدت نفسها وسط غابات من أشجار الحبحب لم يقو الثلج على اخفاء خضرتها.

تذكرت ما سمعته عن هذه المنطقة وعن شتائها اللطيف وصيفها الحار، فلم تقطع عدة أميال حتى خلعت سترتها الصوفية وقفازيها السميكين مبقية على قميص حريري رقيق ارتدت فوقها سترة جلدية زرقاء.

في نهاية الغابات، سلكت جسيكا طريقاً متعرجاً يصل الى سفح الجبل حيث تقبع في نهايته بلدة لويزفيل. مرت على محطة للوقود عند أطراف البلدة، فملأت خزان سيارتها ودخلت مكتب الاستعلامات للاستدلال على منزل الدكتور اوبريان.

أشارت المسؤولة باصبعها الى الطريق العام قائلة:

- عليك بالعودة مسافة نصف ميل والانعطاف شمالا عند الصخرة الضخمة. ثم اتجهي الى اليمين عند التقاطع الثاني وستجدين منزلا مؤلفاً من طابقين. انه المنزل المنشود فالدكتور اوبريان وحده يملك مثله هنا.

عادت جسيكا ادراجها الى السيارة ترافقها نظرات المسؤولة الفضولية وانطلقت تتبع التعليمات، الى ان وصلت الى حيث الصخرة الكبيرة فانعطفت الى اليمين عملا بكلام السيدة لتجد نفسها بعد التقاطع الثاني امام المنزل. ترجلت من السيارة وصعدت الدرجات القليلة امام مدخله الفخم تتأمل نوافذه الكبيرة وحديقته المنمقة. لقيت الباب مفتوحاً فاطلت برأسها من غير استئذان، وألقت نظرة سريعة على الرواق الفسيح الممتد امامها تغطي بلاطه سجادة صينية ثمينة. لكنها أحجمت عن الدخول

وتغلب حياؤها على فضولها وضغطت على الجرس فعلا رنينه بنغمة حلوة في أرجاء المنزل.

مضت لحظات قبل ان تسمع جسيكا صوت امرأة قادمة من الأعلى:

- دكتور نيل على ما أظن. أرجوك تفضل بالدخول وسأوافيك حالا.

دخلت جسيكا مرة أخرى تسترق النظر الى مصدر الصوت. وخطت بضع خطوات في الرواق حتى بانت في الطرف الآخر امرأة بهية الطلعة، ممشوقة القوام هتفت باستغراب خجول:

- آه، أرجو المعذرة يا آنسة. كنت أتوقع قدوم الدكتور نيل و...

- أنا الدكتورة نيل.

جحظت عينا السيدة تعجباً ورمقت ضيفتها بنظرة طويلة ختمتها بضحكة رنانة تردد صداها في أرجاء الرواق وسألت غير مصدقة:

- أنت؟ انت الدكتور نيل؟

لم يرق هذا الاستقبال لجسيكا فقطبت حاجبيها وهمت بالتوجه الى الباب، لكن السيدة استدركت الأمر قائلة:

- انا آسفة يا عزيزتي، لكن لم أقدر على تمالك نفسي.

- يبدو انك لم تتوقعي ان يكون الدكتور نيل امرأة.

- صحيح... أعني لا... يا الهي اني أتصرف كالبلهاء تماماً. ارجوك تعالي نجلس وسأشرح لك كل شيء.

سارت السيدة امام جسيكا الى غرفة جلوس انيقة زاخرة بالتحف على أنواعها، وجلست قبالتها قائلة:

- لم يكف زوجي طيلة الاسبوع المنصرم عن الحديث عن الرجل القادم للعمل معنا. اني أتحرق لرؤية وقع المفاجأة عليه حين يكتشف انك امرأة.

أربك كلامها جسيكا فهي لم تدرك أبداً انهما يتوقعان رجلا للوظيفة الشاغرة، فهذا سيزيد الأمر تعقيداً.

- لم يسبق للدكتور اوبريان ان استعلم عن هذا الأمر وخلته اكتشف ذلك بنفسه بعد مراسلتي له.

- انه يحب المفاجآت من حين الى آخر. ارجو المعذرة يا عزيزتي، انا فيفيان زوجة الدكتور اوبريان. والآن، وبعدما اطلعتك على هويتي، ارجو ان تشبعي فضولي وتخبريني الى ما يرمز الحرف ج.

- جسيكا.

- نسيت ان أقوم بواجب الضيافة. هل آتيك بفنجان من الشاي او القهوة؟

- شكراً لك، لكن أفضل أخذ قسط من الراحة أولا بعد هذا النهار الحافل.

- بكل تأكيد. سأرشدك الى. . .

قطع رنين الهاتف على فيفيان عبارتها فاعتذرت والتقطت السماعة مديرة ظهرها لجليستها.

- اجل يا بيتر، لقد وصل الدكتور نيل وكنت على وشك ارشاده الى حجرته. سنكون في انتظارك هنا. الى اللقاء يا حبيبي.

- أكان المتحدث الدكتور اوبريان؟

- اجل وسيوافينا بعد قليل. دعيني أدلك الى مكان سكنك.

تبعتها جسيكا على مهل، تجتازان الحديقة الراقدة بحبور في أحضان خيوط الشمس الذهبية.

- بامكانك موافاتي الى مسكنك بالسيارة، فهناك مرآب خاص بها.

قادت جسيكا سيارتها عبر الطريق الرملي الملتف حول الحديقة وأوقفتها امام منزل خشبي فتحت فيفيان بابه لتدخل حقائبها.

لم يكن المنزل صغيراً كما خيل لجسيكا. فيه غرفتان للنوم اضافة الى قاعة للجلوس وأخرى للطعام ومطبخ وحمام صغيران.

تجولت مع فيفيان في أرجائه تستمع الى شرح مقتضب عنه:

- كان زوجي يشغل هذا المكان كعيادة قبل ان يحوله الى مسكن مستقل ينزل فيه ضيوفنا. وعندما قرر الاستعانة بطبيب آخر وجدناه المكان الأفضل لسكنه. قد يبدو فارغاً، لكن بامكانك اضفاء اي تعديل داخلي ترينه مناسباً.

اجالت جسيكا نظرها في أرجاء قاعة الجلوس تتأمل اثاثها الخشبي وكأنها في منزل والديها فأغمضت عينيها متمتمة:

- انا واثقة من اني سأهنأ بكل أسباب الراحة هنا.

- هنا هاتف خاص بالمسكن، ومنذ اسبوعين أضاف بيتر مكيفاً للهواء للتخفيف من شدة الحر في الصيف. وبما انك ستكونين منهمكة بالعمل

معظم النهار، فستنضمين الى مائدتنا كل ليلة لتشاركينا العشاء.

شكرتها جسيكا بنبرة مهذبة لكن حازمة:

- اشكرك على حسن ضيافتك لكن أفضل تدبير أموري بنفسي.

- حسناً، اعتذارك مقبول شرط ان تتناولي العشاء معنا هذه الليلة.

لم يسع جسيكا غير القبول فتمتمت بحياء:

- شكراً جزيلا، انت لطيفة للغاية.

- اتفقنا اذن. والآن. . .

احجمت فيفيان عن اكمال عبارتها بعد ان سمعت وقع خطوات في الخارج:

- اعتقد انه بيتر.

بدا وكأن القادم توقف امام المدخل وما لبث ان علا صوته هاتفاً:

- هل انت هنا يا فيفيان؟

ابتسمت الزوجة بعد ان عرفت صوت زوجها وتطلعت الى جسيكا بدهاء مجيبة:

- ادخل يا عزيزي، اننا في غرفة الجلوس.

فوجيء بيتر وهو يدخل الغرفة بوجود جسيكا وتسمرت عيناه الزرقاوان فيها لثوان قبل ان يعلق:

- مرحباً (ورمق زوجته بنظرة تساؤل مردفاً) لم أدرك ان الدكتور نيل متزوج.

علت ضحكة فيفيان مقهقهة وتقدمت من زوجها موضحة:

- دعني أقدم لك يا بيتر الدكتورة جسيكا نيل (والتفتت الى ضيفتها) زوجي الدكتور اوبريان.

تغلبت جسيكا على اضطرابها الناجم عن نظرات الطبيب المذهول ومدت يدها مصافحة:

- كيف حالك يا دكتور اوبريان؟

- اني. . . يا الهي لم أتوقع أبداً ان. . .

مدت فيفيان يدها بدلال تعبث بشعر زوجها:

- لم أرك يوماً بهذا الارتباك يا عزيزي، انك تهذي كالمحموم.

- في الحقيقة، لقد صعقتني المفاجأة.

حدجته جسيكا بنظرة ثاقبة وسألت بعتاب:

ـ هل كوني امرأة يغير من الأمر شيئاً؟

انتبه الطبيب الى ما سببته تصرفاته للضيفة الجديدة، فهتف قائلا:

ـ ابداً... ابداً. مؤهلاتك ممتازة يا دكتورة نيل وهذا جل ما يهمني (وأردف بجدية) تصرفي هذا عائد الى ظني بأنك رجل ولم يخطر ببالي ابدا الاستعلام عن هذا الأمر. أهلا بك في لويزفيل يا دكتورة وأتمنى لك أطيب الأوقات وأهناها معنا.

بعثت كلماته في نفسها شعوراً بالارتياح فقالت مبتسمة:

ـ شكراً يا دكتور اوبريان، انا لا أشك لحظة في ذلك.

تدخلت فيفيان مقترحة:

ـ حسناً، لندع جسيكا الآن تأخذ حماماً ساخناً وترتاح من عناء السفر. أتمانعين في مناداتك جسيكا؟

ـ لا مانع البتة.

ـ سيكون العشاء جاهزاً في تمام السابعة يا عزيزتي، وان أردت اختصار المسافة الى منزلنا، فما عليك سوى سلوك الممر الحجري في وسط الحديقة.

تأبطت فيفيان ذراع زوجها يهمان بالخروج، وقبل ان يغادرا الغرفة التفتت الى جسيكا وكأنها تنبهت الى أمر ما:

ـ لا تعيري الشاب أهمية بالغة، فالعشاء عندنا يتم عادة في اجواء بسيطة وعائلية. الى اللقاء.

بقيت جسيكا دقائق طويلة في مكانها مستسلمة لشعور عارم بالارتياح، تلفها الظلمة المخيمة على الغرفة مصحوبة بسحر الهدوء الطاغي. باتت أكثر اقتناعاً بأنها ستحب عملها الجديد خاصة بعد الاهتمام واللطف اللذين أبداهما مضيفاها.

خرجت الى سيارتها تكمل نقل أمتعتها الى الداخل، وما ان فتحت الصندوق الخلفي حتى رأت امرأة تجتاز الممر مهرولة ناحيتها، وعلى ثغرها ابتسامة عريضة لمعت خلالها أسنانها البيضاء الناصعة:

ـ مساء الخير يا سيدتي، أدعى كاتي وأعمل لدى السيدة اوبريان. كلفت بمساعدتك في نقل الحاجيات.

لم تمانع جسيكا، فأغراضها كثيرة ويكفيها ما عانته من تعب في طريقها

الى هنا. فتركت الخادمة تهتم بالأغراض وصعدت الى غرفتها فاستحمت وتمددت على سريرها لفترة قصيرة.

اختارت لزيارة آل اوبريان، ثوباً رقيقاً بسيط الشكل واللون، وانتعلت صندلا جلدياً ابيض. ثم صففت شعرها بسرعة امام المرآة وغادرت الغرفة مرجئة توضيب امتعتها الى يوم غد.

للمرة الثانية، وجدت نفسها في غرفة الجلوس الأنيقة في منزل آل اوبريان، انما من غير ان يثير وجودها هذه المرة دهشة الحاضرين.

ـ هل ترغبين بكوب من العصير يا جسيكا؟

ـ فكرة لا بأس بها، شكراً يا دكتور.

ـ أرجوك ناديني بيتر (وناولها كوباً من عصير البرتقال مردفاً) بما اننا سنعمل معاً فمن الأفضل رفع الكلفة بيننا منذ الآن.

ابتسمت جسيكا موافقة ورشفت قليلا من العصير:

ـ أتيت في احدى رسائلك على ذكر طبيب مساعد آخر.

جلس بيتر على كرسي خشبي هزاز في مواجهتها وأجاب:

ـ اجل، هذا صحيح واسمه دان نرافورد...

تدخلت فيفيان مقاطعة:

ـ انه شاب عازب وعيبه الوحيد هو سمعته السيئة في لويزفيل.

ـ ما هذا القول يا فيفيان؟

نظرت فيفيان الى زوجها مكملة بهدوء:

ـ من الأفضل ان نطلع جسيكا على حقيقة الرجل الذي ستعمل معه.

ـ دان طبيب ناجح جداً.

أصغت جسيكا الى النقاش الدائر من غير تعليق.

ـ لا شك في مهارته كطبيب، لكن حياته الشخصية صارت موضوع أحاديث كل سكان البلدة، وهدفاً لتعليقاتهم واشمئزازهم.

ـ لا علاقة لنا بحياته الشخصية.

ـ بيتر، انت تعلم مدى اعجابي بدان. فبالرغم من استهتاره فهو لطيف وحلو المعشر، شرط ان يتخل عن نظرته التهكمية لبعض الأمور.

ـ لديه أسباب خاصة ليكون كذلك.

ـ ليس هذا بيت القصيد يا عزيزي، فأهل البلدة على علم بعلاقته

بالسيدة سامرز وانتقالها خصيصاً من بريتوريا لتمضية نهاية الاسبوع معه.

لمعت عينا بيتر ببريق ماكر وضحك معلقاً:

- سيلفيا سامرز تتمتع بجمال خارق.

ردت الزوجة بعصبية ظاهرة:

- طبعاً ستراها فاتنة. انا لا أفهمكم انتم معشر الرجال، فأية امرأة تبرز مفاتنها وترتدي من الثياب ما قلّ ودل، تصبح بنظركم آية في الجمال.

- هل تغارين منها يا فيفيان؟

ابتسمت الزوجة بدهاء محدقة في عينيه الزرقاوين:

- يا عزيزي، كنت أغار لولا يقيني من انك تهيم بي. وأعود فأكرر قولي، علاقة دان بتلك الوقحة أساءت الى سمعته كطبيب في هذه البلدة، واللوم يقع عليه وحده.

- بالله عليك يا فيفيان، لقد رسمت صورة قبيحة للمسكين في مخيلة جسيكا ولما يتقابلا بعد.

التفتت السيدة اوبريان ناحية ضيفتها الصامتة وقالت بهدوء:

- عزيزتي جسيكا، انسي كل ما قلته عن دان، فهو يتمتع ولا شك بسحر يسلب لب كل امرأة ويجعلها تشعر بأنها مميزة. والنسوة ينكرن عليه تصرفاته وبالرغم من ذلك يندفعن الى عيادته للتعرف عليه. فكوني حذرة يا حلوتي.

خرجت جسيكا عن صمتها مستفهمة:

- حذرة ممن؟ دكتور ترافورد ام صديقته الحسناء؟

- من الاثنين معاً، واياك ان تثقي بأي منهما. طبعاً ليست السيدة سامرز من يشكل خطراً حقيقياً، فهي قد تخدش عينيك لا أكثر. بينما الخطر الأعظم سيأتي من دان، فهو قد يقتلع قلبك من بين ضلوعك وهذا ما أخشى حدوثه.

أجابت جسيكا بلهجة الواثق من نفسه:

- لا تنسي اني طبية يا فيفيان، وخبرتي في الرجال تعود الى أيام الدراسة.

- لكنك امرأة ايضا، جذابة وتتمتعين بكل ما يفتح شهية الرجل.

اخفت جسيكا حياءها بضحكة خفيفة معلقة:

- ليت أمي هنا لتسمع كلامك، فقد دأبت طيلة السنوات الماضية على نفي هذه الصفة عني.

- لأنها ككل الأمهات، تريد ان ترى ابنتها تنشأ في اجواء كالتي كانت سائدة في أيامها، تهتم بأنوثتها الى جانب اهتمامها بالأعمال المنزلية. ولكنك اخترت الطب كمهنة فزادها هذا اقتناعاً بأنك اغفلت كونك امرأة واهملت أنوثتك. ألست محقة في قولي؟

لم تقو جسيكا على الانكار فهزت رأسها موافقة:

- صحيح ما تقولين.

نهض بيتر واضعاً كوب العصير على الطاولة وهتف:

- عفواً لقطعي عليكما الحديث، لكن عصافير معدتي تزقزق جوعاً.

هزت فيفيان رأسها مازحة:

- عجيب أمركم ايها الرجال، لا تفكرون سوى بملء بطونكم، فلم يخطئ من قال «عند البطون تضيع العقول».

عند عودتها الى مسكنها، جلست جسيكا على الشرفة الصغيرة المطلة على الحديقة تفكر في واقعها الجديد. الدكتور اوبريان وزوجته يشكلان ثنائياً لطيفاً وممتعاً للغاية. انما ما يشغل بالها ما سمعته عن الطبيب الآخر وكيفية تصرفها معه، ستكون قوية وستحاول تجنبه قدر المستطاع.

عادت الى غرفة الجلوس واتصلت بوالديها تطمئنهما عن وصولها بخير، ثم حضرت فنجاناً من القهوة حملته معها الى غرفتها. لديها عطلة اسبوع كاملة لتعتاد المكان، وترتيبه كما يحلو لها، وعليها استغلال بعضها لنيل قسط وفير من الراحة استعداداً لبداية اسبوع حافلة كما وعدها الدكتور اوبريان خلال العشاء.

٢ ـ حاولت جسيكا اقناع نفسها ان دان ترافورد لا يختلف عن غيره من الرجال. لكنها مضطرة للاعتراف بأنه يتمتع بميزة خاصة، ميزة النفاذ الى القلب بسرعة.

امضت جسيكا عطلة نهاية الاسبوع في توضيب حاجياتها واعادة ترتيب اثاث المنزل بطريقة تتناسب وذوقها . بدأت تستسيغ فكرة العيش وحدها في مسكنها الصغير القابع على كتف حديقة آل اوبريان الغناء، فهنا ستحقق امنية امها وتكون طبيبة وامرأة في آن معاً.

في ساعة مبكرة من صباح الاثنين، اصطحبها بيتر الى المنزل القديم في احدى ضواحي المدينة والذي يشغله كعيادة بعيداً عن الضوضاء والزحمة. اول من التقت كانت الممرضة اميلي هانسن التي بالرغم من علامات الدهشة الفاضحة التي ارتسمت على وجهها عند تعارفهما، رحبت بها بحرارة متمنية لها التوفيق في عملها، ثم استدارت ناحية الدكتور اوبريان:

ـ اتصل الدكتور ترافورد منذ دقائق وسيتأخر في المجيء الى العيادة.

ـ هل اعطاك سبباً لذلك؟

ـ ذهب عند الفجر الى مزرعة آل كرايسون.

ـ ماذا حصل؟

ـ رفس ثور هائج احد العاملين في المزرعة، وحالته تتطلب ادخاله المستشفى لاجراء عملية جراحية مستعجلة.

التفت بيتر نحو جسيكا قائلاً:

ـ يبدو انك ستمضين اليوم الأول بمفردك يا دكتورة. هل بمقدورك تسيير الأعمال الى حين رجوعي؟

اجابت الطبيبة الشابة بهدوء وثقة:

ـ بكل تأكيد.

ـ حسناً، ان اردت الاستفسار عن شيء، نادي الآنسة هانسن وسأكون في المستشفى ان احتجتما الي.

دخلت جسيكا عيادتها بعد رحيل بيتر، تلقي نظرة على محتوياتها وتتفحص خزانة الملفات وأسماء المرضى، حين دخلت عليها الممرضة:

ـ هل تودين القيام بجولة للتعرف على المكان؟

ـ ولم لا؟

سارتا في الرواق الأبيض وقد زينت جدرانه لوحات هادئة الألوان والمناظر. توقفت الممرضة امام احدى الغرف قائلة:

ـ هذه الغرفة تابعة لعيادتك (واشارت باصبعها الى الغرفتين المجاورتين) وهاتان الغرفتان للدكتور اوبريان. وتلك للدكتور ترافورد.

ـ ولماذا غرفتان؟

ابتسمت الممرضة معلقة:

ـ لن تطرحي هذا السؤال بعد ان تشاهدي شدة الازدحام هنا.

ـ ما زلت لا ارى فائدة من وجود غرفتين لكل طبيب.

ـ وجودهما يتيح لك الكشف على مريضين في آن معاً، تعالي.

عادتا الى عيادة جسيكا، حيث فتحت الآنسة هانسن خزانة صغيرة وأخرجت معطفاً قصيراً ابيض.

ـ من المؤسف انه ليس مقاسك، فقد كان معداً لرجل.

فتحت جسيكا حقيبتها الجلدية وتناولت سترة بيضاء مطوية بعناية ووضعتها على المقعد خلف مكتبها.

ـ لا بأس، فقد جلبت سترتي معي.

ابتسمت الممرضة بلطف وعلقت:

ـ تصرف ذكي من جانبك يا عزيزتي، فهذه السترات الجاهزة لا تعجبني ابداً.

ـ متى يبدأ المرضى بالتوافد؟

ـ اعتقد انهم بدأوا لتوهم، فأنا اسمع جلبة في غرفة الانتظار.

ـ اذن، من الأفضل ان تباشري عملك في الحال ولا تدعيهم ينتظرون. اليس كذلك؟

ـ في الحال يا دكتورة.

ما ان اغلقت الممرضة الباب خلفها، حتى اسرعت جسيكا الى ارتداء سترتها البيضاء ملقية نظرة سريعة على الغرفة تتحقق من مكان وجود آلات الطبابة. انها عيادة صغيرة ومريحة تحوي كل ما قد يلزمها اثناء الكشف على المريض. سرير جلدي طويل وعال مكسو بغطاء ابيض، وخلفه شاشة مربعة تظهر عليها نتائج الفحوص مباشرة. قرب المكتب، خزانة زجاجية صفت عليها آلات معقمة وبعض الأدوية الضرورية. انها تجربة جديدة وغريبة تمر بها، فعملها هنا يختلف تماماً عما كانت تقوم به في جوهانسبرغ.

لقيت جسيكا بعض الصعوبات في تعاملها مع الدفعة الأولى من المرضى، وراعها ما لاحظته من تعابير متناقضة على وجوههم. فمن دهشة عند ولوجهم الغرفة الى حيرة وارتباك خلال الكشف، لينتهي الأمر باذعان حذر لارشاداتها. لكنها كانت تعلم في قرارة نفسها ان حيرتهم هذه ستزول فور مغادرتهم العيادة وفي حوزتهم الوصفة الطبية.

تطلعت الى ما تبقى من اسماء على اللائحة المعلقة امامها، ونادت بأعلى صوتها:

- المريض التالي.

دخل مزارع ضخم الجثة لفحت وجهه شمس البيادر وفتلت ساعديه اعمال الحقل، خلع قبعة القش الكبيرة عن رأسه الضخم بوقاحة سائلاً بصوت اجش:

- هل استعان الدكتور اوبريان بممرضة اخرى؟

- لست ممرضة يا سيد بوشوف، بل طبيبة مساعدة.

فتح المزارع فاه مشدوهاً:

- أأنت الطبيب الجديد؟

ردت جسيكا ببرودة متعمدة:

- هذا صحيح. مما تعاني يا سيد بوشوف؟

اشار باصبعه الغليظة الى صدره شارحاً:

- انها القحة يا... يا دكتورة. تكاد تقتلني وتسبب لي الماً مبرحاً هنا. هل بامكانك اعطائي دواء ناجعاً لها؟

تقدمت منه على مهل ممسكة بسماعتها:

- سأكشف عليك اولاً.

انتفض الرجل فجأة وتراجع الى الوراء مزمجراً بانفعال:

- تكشفين علي؟

لم تأبه جسيكا لردة فعله، وأشارت الى العازل:

- اخلع قميصك يا سيد بوشوف واستلق على السرير.

تناول قبعته ملوحاً بها وكأنه يحمي نفسه:

- لن اخلع قميصي امام امرأة. صفي لي الدواء ولن ازعجك بعد ذلك.

حدجته بنظرة فاحصة وهتفت بتذمر:

- اسمع يا سيد، ليست المرة الأولى التي تقع عيناي على رجل كاشف الصدر، فاخلع قميصك ودعنا من هذه الحركات السخيفة.

- لن افعل امام امرأة غير زوجتي. وأنت...

قحة مفاجئة صدرت خلف المزارع قاطعة عليه عبارته، فاستدارت جسيكا ناحية الباب، لتلتقي عيناها بعينين رماديتين ترمقانها بنظرة شرهة، اثارت فيها ارتباكاً تخطى تأثيره حدود المفاجأة.

لم تهتم بسؤاله عمن يكون، فهالة الرجولة المحيطة بقوامه الرشيق ومنكبيه العريضين، شلتها قبل ان تتمكن من الكلام.

- هل حدث سوء يا دكتورة؟

- اريد ان اكشف على السيد بوشوف لكنه يأبى خلع قميصه.

تدخل المزارع معترضاً بانفعال:

- انها امرأة يا دكتور ترافورد.

التفتت جسيكا من جديد ناحية المتطفل، عند سماعها اسمه، تمعن النظر فيه بذهول مشوب بالاضطراب. ما برح واقفاً على عتبة الباب، يبادلها النظرات بعينين وقحتين لا يرف لهما جفن.

- ولا تنس يا صديقي انها ايضاً طبيبة، ومن المؤكد انها رأت خلال عملها مئات الرجال الكاشفين عن صدورهم. لا تكن غبياً يا رجل واخلع قميصك.

انصاع المزارع لأوامر الدكتور ترافورد وخلع قميصه متمتماً:

- بئس هذه الأيام اللعينة، فالعالم ولا شك سائر الى الخراب.

غادر الطبيب الغرفة بهدوء كما ظهر، فالتقطت جسيكا آلتها وبدأت الكشف

على المريض من غير ان يبدي اعتراضاً.

استغرق الأمر دقائق قامت جسيكا بعدها لتغسل يديها:

- بامكانك ارتداء قميصك يا سيد بوشوف.

- ما الأمر يا دكتورة؟

- احتقان في شعيباتك الرئوية، هل تدخن؟

- نعم.

- كم سيكارة يومياً؟

- ادخن... ادخن كثيراً.

اعادت جسيكا السؤال بلهجة آمرة:

- هيا يا سيد بوشوف، كم سيكارة؟

اجاب المزارع بتذمر:

- حوالى الستين على ما اعتقد، ولا تحاولي ان تسأليني التوقف عن التدخين.

- لن اطلب منك التوقف عن التدخين لكني سأسألك التقليل منه، أو التوصل الى تدخين نصف العدد الحالي.

ثم اردفت قبل ان تسمع اعتراضه:

- سأصف لك دواء وعد الى هنا بعد اسبوع.

تناول المزارع قبعته بسخط واتجه نحو الباب:

- من الأفضل ان ارى الدكتور اوبريان أو الدكتور ترافورد.

ابتسمت جسيكا وهي تكتب نوع الدواء على ورقة صغيرة امامها ثم تمتمت بتهكم:

- كما تشاء يا سيد بوشوف.

علت ضحكة جسيكا بعد خروج المزارع حانقاً من عيادتها، فالتحدي الخفي بين كونها امرأة وعدم اعتياد المرضى على ذلك ظهر جلياً منذ اليوم الأول. لكن ضحكتها هذه لم تدم طويلاً مع دخول المريض التالي.

تهادت جسيكا على مقعدها بعد ان تأكدت ان المرأة التي خرجت لتوها من الغرفة كانت آخر اسم لديها لهذا الصباح. لقد نالت ما كانت تسعى اليه منذ فترة واحست بتغيير في حياتها كطبيبة. كانت على حق عندما تجاهلت تحذيرات والدها واقدمت على المجيء الى هذا المكان. افاقت من

شرودها عند سماعها وقع خطوات خلفها، فاستدارت لتجد نفسها مرة اخرى وجهاً لوجه مع دان ترافورد الذي لم يكتف هذه المرة بالوقوف عند الباب، بل تقدم من مقعدها بقامته الطويلة مسلطاً عليها نظرات وقحة.

ألقت جسيكا نظرة سريعة على الزائر الجذاب من غير ان تحرك ساكناً مأخوذة بطلته البهية ووجهه الضاحك من غير ابتسام.

حدق دان ترافورد فيها طويلاً ولم يترك مكاناً من جسمها الا وتفحصه. من شعرها الأشعث حتى حذائها، مما بعث فيها رجفة خفيفة لم تقو على اخفائها فتململت محركة كتفيها بعصبية واضحة. تمتمت بصوت خافت:

- لا لزوم للتعارف بعد ان اسدى الي السيد بوشوف خدمة جلة، اريد ان اشكرك يا دكتور.

- لا تشكريني فربما احتجت لمساعدتك يوماً ما.

لم تدر جسيكا حقيقة ما يرمي اليه، لكن شعوراً داخلياً ينبئها بأن ما قصده لا يتعلق بالعمل ابداً، فأجابت:

- بما اننا سنعمل معاً في الأشهر القادمة، فانني سأكون مسرورة ان نحن تعاونا في العمل.

ارتسمت على ثغره ابتسامة ماكرة اثبتت لجسيكا صدق شعورها وقال معلقاً:

- يسرني سماع هذا الكلام.

حدقت جسيكا طويلاً في هاتين العينين المسلطتين عليها، تحاول اقناع نفسها بأن صاحبها لا يختلف عن غيره من الرجال الذين مروا في حياتها. لكنها مضطرة للاعتراف بأن دان يتمتع بميزة خاصة لم تعرفها من قبل، ميزة النفاذ الى القلب بسرعة وقدرته العجيبة على جعلها تحس انها امرأة، اذ ان كلماته اعادت اليها، في لحظات، شعورها بالأنوثة.

ارتبكت وأشاحت بوجهها نحو النافذة محاولة اخفاء قلق ارتسم فجأة على محياها، ولم ينقذها من هذا الموقف الحرج سوى دخول بيتر اوبريان الغرفة.

- آه، انت هنا يا دان، اراك قد تعرفت على زميلتنا الجديدة.

رد دان ببرودة من غير ان تطلق عيناه سراح جسيكا:

- اجل لقد تعارفنا.

هتف بيتر موزعاً نظراته بين الاثنين:

- حسناً، هل سارت الأمور على ما يرام هذا الصباح؟

ابتسم الدكتور ترافورد بسخرية قاطعاً على جسيكا فرصة اخبار بيتر بما حدث مع المزارع بوشوف.

- على افضل ما يرام يا بيتر.

التفت بيتر نحو الممرضة التي دخلت لتأخذ ملفات المرضى عن طاولة جسيكا:

- هل اتصل أحد يا آنسة هانسن؟

- كلا. بامكانك الذهاب الى المنزل والتمتع بوجبة طعام هانئة.

صفق دان هاتفاً بفرح:

- لم اسمع نبأ ساراً كهذا منذ شهور (والتفت الى جسيكا متسائلاً) هل ترافقينني؟

حافظت جسيكا قدر الامكان على هدوئها، وأجابت متصنعة البراءة:

- اتعني الى الغداء؟

رد بلهجة هازئة:

- طبعاً الى الغداء يا دكتورة.

اعتذرت بتهذيب لكن بحزم:

- اعمال كثيرة علي القيام بها قبل ان يصبح بامكاني القول اني انهيت ترتيب المنزل. شكراً على الدعوة.

اجاب دان بلهجة تعكس عدم اكتراثه:

- يا للأسف. القاكم بعد الظهر.

خيم صمت طويل على القاعة بعد رحيل دان قطعته الممرضة هانسن معلقة:

- اعرف شيئاً واحداً عن الدكتور ترافورد، وهو عدم تخليه عن المحاولة مهما حصل. ربما هذا سبب نجاحه كطبيب.

ضاعت تعابير وجه الدكتور اوبريان بين العبوس والابتسام:

- كلامك يا آنسة هانسن وكلام زوجتي سيجعلان جسيكا تظن اننا نؤوي رجلاً خطراً في عيادتنا.

صاحت الممرضة مدافعة عن دان:

- لا، ليس هذا ما قصدته. ليس الدكتور ترافورد من هذا النوع ابداً، انما يملك قوة غريبة تجعل منه شخصاً لا تصده امرأة.

ابتسم بيتر بمكر معلقاً:

- اتعنين انه جذاب للغاية يا آنسة هانسن؟

توردت وجنتا الممرضة خجلاً واحتارت كيف تخفي ارتباكها، فصاحت:

- اذهبا لتناول الغداء واتركاني وشأني.

ما كادت جسيكا تنهي غداءها حتى سمعت رنين الهاتف في غرفة الجلوس.

- اعتذر لازعاجك في وقت الغداء، فالدكتور ترافورد غادر العيادة لتوه الى المستشفى والدكتور اوبريان منهمك في اجتماع هام للغاية.

التقطت جسيكا القلم وسألت بقلق:

- ما الأمر يا آنسة هانسن؟

ردت الممرضة موضحة:

- لقد تلقيت مكالمة من اوم هاني دلبورت وهو تاجر مشهور في البلدة، يقول ان زوجته سقطت وتشكو من ألم رهيب.

- ارشديني الى المنزل لأمضي حالاً.

- يملكان محلاً ملاصقاً لمكتبة لوغان، ومنزلهما يقع خلفه مباشرة.

اعادت جسيكا سماعة الهاتف الى مكانها، ومضت بعد ان تناولت حقيبتها، الى منزل آل دلبورت.

لم تجد صعوبة في اتباع تعليمات الممرضة، وفي دقائق كانت تقرع باب المنزل فاستقبلها رجل مرتبك، قدمت له جسيكا نفسها:

- سيد دلبورت، انا الدكتورة نيل.

تنحى اوم دلبورت جانباً مفسحاً لها المجال لتمر:

- اهلاً يا دكتورة ارجوك اتبعيني.

لحقت جسيكا بسيد المنزل، بقامته النحيلة وعظامه النافرة، الى غرفة النوم.

- جعلتها تستلقي بعد ان غسلت قدميها بالماء الساخن، ولكنه لم يجد في تخفيف المها.

وفي الغرفة المظلمة تمددت امرأة ضخمة الجثة، رمادية الشعر على سرير خشبي قديم تئن بصوت خافت وكأنها تحتضر. وضعت جسيكا حقيبتها على كرسي قريب وتقدمت من المريضة مبتسمة:

- مرحباً يا سيدة دلبورت. انا الدكتورة نيل.

نظرت السيدة بطرف عينيها الى جسيكا وتمتمت بالرغم من الهها:

- لا يبدو عليك ذلك، ما زلت يافعة يا صغيرتي.

تقبلت جسيكا كلام العجوز مبتسمة بالرغم من كرهها الشديد لتشبيهها بالطفلة.

- ستسمحين لي ان اكشف عليك. اليس كذلك؟

- افعلي ما تشائين، لكن ازيلي عني هذا الألم المبرح.

هم الرجل بمغادرة الغرفة لكن جسيكا استوقفته وهي تباشر الكشف على العجوز:

- بامكانك البقاء هنا يا سيد دلبورت.

راحت يداها الصغيرتان تتلمسان بلطف وحذر معدة العجوز تحاول تحديد موضع الألم.

- منذ متى تعانين هذه الآلام يا سيدة دلبورت؟

قاطعتها العجوز بلهجة محببة وهي تعيد ارتداء ملابسها بمعاونة زوجها:

- ارجوك ناديني العمة ماريا. فالكل يناديني بذلك.

وأشارت بسبابتها الى العجوز الجالس على حافة السرير:

- وزوجي يدعى اوم هايني.

- انكما ثنائي لطيف، اخبريني الآن عن آلامك.

- تنتابني هذه الآلام باستمرار منذ عدة اسابيع، تقوى تارة وتخف تارة اخرى، لكن هذه المرة هي الأسوأ.

وزفرت زفرة طويلة مخفقة في اخفاء الهها عن الطبيبة الشابة.

- لماذا لم تعرضي نفسك على طبيب؟

- ظننت ان الأمر لا يتعدى عسر هضم بسيط.

ساد صمت ثقيل التقت خلاله عيناها عيني جسيكا:

- ما الأمر يا صغيرتي؟ صارحيني ارجوك.

- لا يمكنني الجزم في الوقت الحاضر، يا عمتي، لكني اعتقد ان آلامك

ناتجة عن حصاة في الكلية.

صاحت العجوز باشمئزاز اضحك جسيكا:

- حصاة؟ ومن اين جاءت هذه الحصاة؟

فتحت جسيكا حقيبتها وشرعت في تحضير حقنة:

- انها تتكون في المثانة يا عمتي، لكني لن اسهب الآن في تفسير ذلك. سأعطيك ما يخفف الم، واطلب منك ان تمضي عدة ايام في المستشفى.

رددت العجوز بذهول عبارة الدكتورة وما ان همت بالاعتراض حتى قلبتها جسيكا على بطنها لتغرز رأس الابرة في جلدها.

- اريد ان اصورك بالأشعة، فبهذه الطريقة نتأكد من صحة تشخيصي للداء، وبعدها نقرر ما يجب عمله.

- لا يمكنني دخول المستشفى. ماذا سيحدث لهايني خلال مكوثي هناك؟

علا صوت السيد دلبورت للمرة الأولى منذ وصول جسيكا، ورد بلهجة مطمئنة حازمة:

- لا تقلقي علي يا ماريا، سأتدبر اموري. لا بأس يا دكتورة، سأدخلها المستشفى في الحال.

- حسناً يا سيد دلبورت، سأقوم بالاجراءات اللازمة.

بعد لحظات قليلة، كانت جسيكا وراء مقود سيارتها البيضاء تواجه مشكلة مضحكة ومزعجة في آن معاً. لقد اخبرتها الآنسة هانسن عن وجود ثلاث ابنية عالية في لويزفيل. الأولى الهيكل الحجري والذي تعرفه جسيكا جيداً لوقوعه في الطريق المؤدي الى العيادة، والباقيتان المدرسة الرسمية، والمستشفى وكلاهما بان لجسيكا بوضوح وهي تقود سيارتها في الطريق العام. ولكن الصعوبة تكمن في معرفة اي منهما هي المستشفى.

لم يكن امامها وهي الغريبة عن البلدة سوى اتباع السهام المغروزة الى جانب الطريق حيناً وسؤال احد المارة حيناً آخر. الى ان وصلت في النهاية الى الباحة الواسعة المحيطة بالمستشفى ودخلت المبنى المجدد والمحاط بأشجار الصنوبر، وتغطي جدرانه نباتات خضراء.نضرة. كانت تفكر في حالة السيدة العجوز وصحة تشخيصها للمرض الذي تعاني منه، عندما سمعت صوت دان ترافورد خلفها مباشرة:

- يا للصدفة الرائعة!

أهو حظها العاثر يفرض نفسه اليوم حتى تلتقي الرجل الذي منذ لقائها الأول يتعمد بجسارة القضاء على رصانتها والتأثير على ثقتها بنفسها؟

اقترب منها مبتسماً بسخرية:

ـ تبدين وكأنك تائهة، هل تبحثين عن احد؟

ـ كنت... اريد ان اقوم بالاجراءات اللازمة لادخال احد المرضى قبل المساء، فعليها ان تخضع لصور الأشعة في اسرع وقت ممكن.

ـ اتبعيني يا دكتورة نيل.

سارت جسيكا خلفه في الرواق المؤدي الى مكاتب الادارة.

ـ ما اسم المريضة؟

ـ السيدة دلبورت.

استدار دان ناحيتها وقد ارتفع حاجباه دهشة:

ـ العمة ماريا، صاحبة البنية الضخمة؟ ما بالها هذه المرة؟

ـ اعتقد انها البحصة.

تمتم دان وهو يهم بدفع الباب المؤدي الى مكتب استقبال المرضى:

ـ هل انت متأكدة من انها البحصة؟

ـ كل التأكيد (وأضافت بشيء من التهكم) هل تشك في صحة تشخيصي يا دكتور ترافورد؟

ـ لم اشك لحظة في صحة تشخيصك يا دكتورة نيل، لكن، قد يكون الأمر مجرد سوء هضم بسيط.

ـ اني متأكدة من ان الأمر ليس كذلك. الى اللقاء.

دخلت المكتب مقفلة الباب خلفها. لم تلتق قبلاً رجلاً بمثل سماجة دان ترافورد وتأثيره على مزاجها، فقد كانت فيفيان على حق في وصفها له. لكن الوقت الآن لا يسمح باثارة مثل هذه الأمور، خاصة وان حياة السيدة دلبورت مرهونة بسرعة ادخالها المستشفى.

اتمت جسيكا الاجراءات اللازمة. وقبل ان تعود ادراجها الى السيارة، استرعى انتباهها صوت خطوات سريعة تتبعها، وأحست بقشعريرة باردة تسري في انحاء جسمها.

ـ دكتورة نيل.

انه صوته يضج في انحاء الرواق بنبرة التهكم التي لا تفارق عباراته.

جمدت في مكانها واستدارت لتجد دان يسد عليها الطريق بطلته المؤثرة وقامته الممشوقة.

ـ هل لديك مانع في حمل مجموعة من صور الأشعة وتسليمها لبيتر، فهو يود الاطلاع عليها؟

ـ بكل تأكيد يا دكتور ترافورد.

ناولها دان ظرفاً مختوماً معاوداً الكلام:

ـ بالمناسبة يا دكتورة نيل، ان احتجت الى استشارة ثانية بشأن العمة ماريا فأنا في خدمتك.

كتمت جسيكا غيظها ونظرت الى محدثها مبتسمة بهدوء مصطنع:

ـ شكراً على عرضك اللطيف يا دكتور ترافورد، لكني لا اشك لحظة في تشخيصي.

لم يقدر دان على كتم ضحكة اطلقتها شفتاه وقال هازئاً:

ـ آه، كم تعجبني هذه الثقة بالنفس!

ـ كيف اتوقع من مرضاي ان يمنحوني ثقتهم اذا لم اكن املك الثقة الكافية بنفسي؟

اجاب محافظاً على نغمة الهزء نفسها التي غشت عباراته حتى الآن:

ـ صحيح... صحيح.

احست نفسها كبركان على وشك قذف حممه، وسألته بجفاء:

ـ اهناك خدمة اخرى يا دكتور ترافورد؟

ـ بقي ان تقبلي دعوتي الى العشاء الليلة.

بدا التحدي واضحاً في كلامه، جلياً في نظراته، فاحجمت عن الكلام لثوان طويلة وكأن شللاً اصاب دماغها، لكنها تمالكت نفسها مجيبة بهدوء:

ـ اني واثقة من انك ستجد شخصاً مسلياً اكثر مني تمضي معه وقت فراغك يا دكتور ترافورد.

هز رأسه موافقاً وقد اغاظه رفضها المتكرر لدعوته:

ـ لا شك في ذلك يا دكتورة نيل.

غاب دان في نهاية الرواق تاركاً اياها فريسة زوبعة هائلة من القلق والحنق. مرة اخرى تتجنب تحديه وتظهر جبناً، متهربة من دعوته لها. فحملت افكارها المتعبة الى سيارتها واتجهت الى العيادة لتستقبل من جديد

سيلاً من المرضى. فور دخولها عيادتها، القت نظرة سريعة على ملفات المرضى الموضوعة على مكتبها وراحت تدقق فيها قبل المضي في الكشف على اصحابها. استوقفها ملف امرأة في المراحل الأخيرة من حملها تدعى اوليفيا كينغ لها من العمر تسع وعشرون سنة. حازت على اعجاب جسيكا فور ولوجها الغرفة، بقامتها القصيرة وشعرها الحريري الراقص على كتفيها. تبادلت الاثنتان ابتسامة رقيقة، ونهضت جسيكا عن كرسيها مرحبة:

- مساء الخير يا سيدة كينغ، تفضلي بالجلوس.

تهادت السيدة الحامل بثقل على المقعد:

- شكراً يا دكتورة.

- الملف يدل على انك احدى مريضات الدكتور اوبريان.

- هذا صحيح، وفور علمي بأن الطبيب الجديد امرأة، اخبرته بأني افضل عرض نفسي عليك من الآن وصاعداً.

ابتسمت جسيكا بلباقة:

- لم اظن اني سأسمع هذا الكلام من احد مرضاي اليوم.

هتفت السيدة بتعجب:

- لماذا؟

- معظم مرضاي يا سيدة كينغ اصيبوا بصدمة عندما علموا بأن امرأة ستقوم بالكشف عليهم. وللمرة الأولى منذ وصولي الى هنا، اجد من يقصد عيادتي لأنني امرأة.

- في الحقيقة، كنت اخشى ان يسبب توجهي الى طبيب آخر اساءة الى بيتر، لكن كونك امرأة اعطاني العذر المناسب.

- عفواً يا سيدة كينغ، لكني لم افهم ما تعنين، لماذا تحتاجين العذر لتبدلي طبيبك؟

ارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتي المريضة واردفت شارحة:

- فيفيان زوجة بيتر، هي اخت زوجي، ومن غير اللائق التخلي عن طبيب تربطني به صلة قرابة.

- حسناً، هلا خلعت ثيابك يا سيدة كينغ وارتديت هذا القميص الأبيض، سأعود بعد دقائق لأكشف عليك.

اتجهت جسيكا الى غرفة الطوارىء لاسعاف ولد اصيب بجرح عميق في احد اصابعه، عادت مباشرة الى عيادتها حيث استلقت السيدة كينغ على السرير الجلدي. لم يستغرق الكشف سوى دقائق قالت جسيكا بعده معلقة:

- لم يبق امامك مدة طويلة يا سيدة كينغ.

ابتسمت المريضة تاركة جسيكا تساعدها في النهوض:

- انه طفلك الأول، اانت متحمسة للفكرة؟

- جداً، حتى انها باتت تؤثر على اعصابي.

- لا حاجة للقلق يا سيدة كينغ.

ضحكت اوليفيا ضحكة رنانة:

- هذا ما قاله لي بيتر، ومع ذلك لم اتخلص من القلق تماماً. ناهزت الثلاثين وسمعت قصصاً كثيرة عما تعانيه المرأة في مثل هذا السن اثناء الولادة الأولى.

جلست جسيكا الى مكتبها تدون بعض الملاحظات ثم التفتت الى مريضتها:

- لا ادري سبباً لشغف بعض الناس في اثارة هلع الآخرين.

- السبب هو وجود اشخاص اغبياء مثلي يصدقون مثل هذه الأخبار. اريد الطفل مهما كلف الأمر.

- وستحصلين عليه يا سيدة كينغ.

اغمضت اوليفيا عينيها واسندت رأسها الى حافة المكتب:

- سيضفي على المنزل جواً من المحبة والالفة، وبه ستتوطد علاقتي بزوجي اكثر فأكثر. لزوجي ابنة صغيرة من زوجته الأولى رحمها الله، ولكن هذا لم يؤثر على علاقتنا. فهي اكثر من متينة وهذا الطفل يا دكتورة نيل سيزيدها روعة ومتانة.

- ما اسم ابنة زوجك؟

- فرانسين.

ارتسمت مسحة من القلق على وجه اوليفيا:

- حماسها غير معقول، وهذا احد الأسباب التي تقلقني.

- قلقك في غير محله يا سيدة كينغ، كل شيء سيسير على ما يرام. فأنت

شابة مثلي وأنا واثقة من انك تفوقينني قوة وعزماً.

- اشعر بارتياح هائل وأنا اتحدث اليك. وأرجو ان تقومي بزيارتي في المزرعة قريباً، شرط عدم الكلام في شؤون العمل.

- اشكرك على هذه الدعوة اللطيفة يا سيدة كينغ.

- لنتخل عن الشكليات، ادعى اوليفيا، وكما قالت فيفيان عند قدومي الى لويزفيل، كلنا عائلة واحدة هنا وهي على حق في ذلك.

- حسناً اتفقنا.

- ارجو ان تستمتعي بالعيش بيننا، فالناس هنا لطفاء جداً.

ونهضت عن مقعدها متابعة:

- والآن علي ان اذهب.

نهضت جسيكا بدورها مذكرة:

- يجب ان اكشف عليك من جديد بعد اسبوع.

- بكل تأكيد. شكراً على هذه الجلسة الرائعة.

- الاستماع الى مرضاي جزء من مهنتي.

- انت لطيفة للغاية. الى اللقاء في الاسبوع المقبل وربما قبل ذلك.

حدقت جسيكا طويلاً في الباب بعد ان اغلقته اوليفيا وراءها، تفكر في هذه السيدة الفتية صاحبة الوجه الناعم والسحر الذي لا يخفى على احد. اعجبت ببراءتها وحماسها لأن تكون اماً، انها النوع الذي يؤثر في الآخرين منذ الوهلة الأولى، ويترك حضوره عطراً فواحاً لمدة طويلة.

٣- لا تعرف خطوتها التالية وكأنها تسير في المجهول. تعرف أن الخطر يحدق بها وهي تشهد الوهن يدبّ في قدرتها على مواجهة هذا الرجل الغريب...

في نفس الليلة، توجهت جسيكا بعد العشاء لتعود العمة ماريا في المستشفى.

كانت العجوز ممددة في الفراش مسندة رأسها الى عدد من الوسادات الصغيرة، تنتظر السماح لزوجها بزيارتها.

رفعت رأسها مبتسمة لجسيكا وهي تدخل الغرفة:

- أهلاً بحلوتي الصغيرة. ما أسمك الأول يا دكتورة نيل؟

- جسيكا.

- حسناً، اسمعيني يا جسيكا. زال الألم الآن، وأشعر بتحسن ملموس، فهل بامكاني العودة الى المنزل لأبقى مع أوم هايني؟

- لن نبحث هذا الموضوع في الوقت الحاضر، فزوال الألم مرده الى الدواء الذي وصفته لك. غداً سنقوم بتصويرك على الأشعة.

همهمت العمة العجوز بسخط:

- أعلم الاعيبكم أيها الأطباء، ما ان تضعوا أيديكم على مريض مسكين مثلي حتى تدخلوه المستشفى، فلا يخرج الا وقد عملت مباضعكم في جسمه.

وضعت جسيكا أصبعيها على معصم المريضة تتفحص نبضها مبتسمة:

- لن نجري أية عملية جراحية ما لم تكن لصالحك.

- أعلم ذلك يا صغيرتي. وان كنت دائمة التذمر فلأني قلقة على زوجي العجوز. لقد اشتقت اليه.

- وأنا متأكدة من شوقه اليك أيضاً... أعدك بأن الأمر لن يطول.

فتح الباب فجأة وأطل دان ترافورد بطلعته البهية، فهتفت العجوز بحبور:

ـ ها هو الدكتور ترافورد الطيب (ونظرت الى جسيكا مضيفة) أليس جذاباً؟

أجابت جسيكا متلعثمة:

ـ لا... لا أدري.

علا صوت الدكتور ترافورد بنبرته التهكمية المعهودة وهو يتجه الى حافة السرير المواجهة لجسيكا.

ـ ما الذي لا تدرينه يا دكتورة نيل؟

سبقت جسيكا العجوز الى الاجابة:

ـ كنا نتناقش أموراً خاصة يا دكتور ترافورد.

هتف دان موزعاً نظراته الساخرة بين جسيكا والعجوز.

ـ آه، بات لديكما ما تخفيانه عن الآخرين ولم يمض على تعارفكما يوم واحد. ستخبرينني كل شيء عندما تغادر الدكتورة نيل الغرفة، أليس كذلك يا سيدة دلبورت؟

ردت العجوز بلهجة حازمة خفف من حدتها بريق ضاحك في عينيها:

ـ لن أخبرك شيئاً أيها الداهية.

تصنع دان الكآبة وامسك بيد العمة ماريا معاتباً:

ـ أبهذه اللهجة تكلمني فتاتي المفضلة؟

ضحكت العمة بمكر:

ـ من حظك اني لا اصفعك احياناً.

ـ انك تهينينني يا عمتي العزيزة.

ـ لم أعهدك حساساً الى هذا الحد يا دان ترافورد. حان لك ان تقلع عن طيشك وتجد لنفسك فتاة طيبة تشاركك مستقبلك.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة.

ـ جدي لي فتاة طيبة مثلك يا عمة ماريا وسأتزوجها في الحال.

ـ لست بحاجة لمساعدة أحد، استعمل عينيك وعقلك لايجاد الفتاة المناسبة. ولكنك لن تفلح في ذلك ما دمت هائماً على وجهك في الاتجاه الخاطىء.

ادركت جسيكا ما تعنيه العجوز بكلامها وتذكرت ما قالته فيفيان عن علاقة دان.

اطلق الدكتور ترافورد ضحكة قصيرة وأجاب:

ـ لعلني راض بالطريق الذي اخترته.

لم تجد العجوز فائدة من متابعة الكلام، فقالت مشفقة:

ـ اذن، اني ارثي لحالك يا عزيزي.

هز دان رأسه بتململ وتطلع في عيني العجوز قائلاً:

ـ لا ادري لماذا اسمح لك بالتحدث الي بهذه الطريقة.

ـ لأني عجوز كفاية لتعتبرني كوالدتك، عدا عن اني معجبة بك بالرغم من سوء اخلاقك.

قاطعتها جسيكا مودعة من غير ان تلتفت الى دان:

ـ سأراك غداً يا سيدة دلبورت.

ـ الى اللقاء يا جسيكا.

رفع دان ذراعه قاطعاً عليها طريق الخروج.

ـ دقيقة واحدة يا دكتورة نيل.

ترافق دان وجسيكا في الرواق الطويل الفاصل بين الغرف. وقبل وصولهما الى المصعد، التفت اليها قائلاً:

ـ يقدمون قهوة لذيذة في هذا المطعم.

ـ فكرة جيدة، لكن الوقت متأخر وأفضل العودة الى المنزل.

لمعت عينا دان ببريق شيطاني غريب بعث الرعب في قلبها.

ـ فكرة أخرى جيدة، فأنا واثق من ان قهوتك أفضل من هنا.

ردت جسيكا بحدة:

ـ لا تفسر كلامي على انه دعوة.

ـ بل انها ألطف دعوة (وافسح لها المجال للخروج من المصعد متابعاً) لقد دعوت نفسي.

توقفت جسيكا عن السير والتفتت اليه بانفعال:

ـ ان كنت تظن اني...

قاطعها دان بهدوء:

ـ ساتبعك بسيارتي ولا تسرعي، فالقانون صارم في لويزفيل.

لم يكن بوسعها ان ترفض عرضه هذه المرة، فقد آن الأوان لترد له التحدي، وتشعره بقدرتها على مقاومة هزئه وسخريته. ستثبت له انها لا تهابه وتريه مدى ثقتها بنفسها. جلست خلف مقود سيارتها تراقبه يستقل سيارته الحمراء... ثم ادارت المحرك تتساءل الى أين سيؤدي بها الامر هذه المرة، ان حاول هذا الطبيب الوقح تمضية بعض الوقت معها للتسلية مستغلاً سفر صديقته الى بريتوريا، فسيلقى من الرفض والصد ما يلقنه درساً لن يغرب عن باله أبداً. لن تدع علاقتها به تتعدى حدود المشاركة المهنية. لحق بها في الطريق المؤدي الى منزلها، وبقي خلفها الى ان فتحت الباب واضاءت غرفة الاستقبال.

ـ اصبح المكان جميلاً للغاية (وتبعها الى المطبخ مضيفاً) هل تعلمين ان بيتر استعمله كعيادة في بداية عمله في لويزفيل؟

وضعت جسيكا غلاية القهوة على النار بيدين مرتجفتين:

ـ اخبرتني فيفيان ذلك.

علق دان بلهجة تقارب السخرية:

ـ فيفيان. انها غير راضية عني أبداً.

ـ لا شك انك تعرف السبب.

ـ وانت، هل تعرفينه؟

فوجئت بسؤاله واحتارت بماذا تجيب. لقد اوقعت نفسها في مأزق حرج بسبب صراحتها، فتعمدت تغيير الحديث لانقاذ نفسها:

ـ كيف تحب القهوة؟

ـ من غير سكر... (واقترب منها وهي تسكب الماء في الفنجان حتى كاد يلامسها) لم تجيبي على سؤالي.

ـ حياتك الشخصية لا تهمني يا دكتور ترافورد.

ارتاحت أنامله على كتفيها تزحف ببطء الى رقبتها مثيرة في جسمها شحنات كهربائية جعلتها ترتعش كعصفور في خضم العاصفة.

ـ ولم لا يا جسيكا؟

تلفظ باسمها بسهولة ومن غير تكلف هذه المرة، واحست بنبرته تحضنها بدفء ونعومة، لكنها ليست على استعداد للاستسلام أو للانجراف مع تيار جاذبيته أبداً. فاستدارت تقدم له فنجان القهوة والتقت عيناها الضائعتان

بعينيه تساؤلاته الرحيل:

ـ ارجوك يا دكتور ترافورد، اشرب قهوتك وارحل.

بغطرسة مزعجة كانت تتوقعها منه، سألها:

ـ لماذا؟

ـ لأني تعبة وأريد ان آوي الى الفراش.

جلس الى الطاولة يرشف قهوته ببرودة قاتلة وكأنه قرر تمضية ليلته هنا.

ـ هذا ما سأفعله أيضاً، هل لديك جواب حاذق هذه المرة؟

ـ تعليقك لا يستحق جواباً.

وما كادت تجلس الى الطاولة قبالته حتى علا رنين الهاتف ينقذها من ارتباكها، فهرعت الى غرفة الجلوس لتعود بعد ثوان معلنة:

ـ المكالمة لك.

ووقفت قرب باب المطبخ غير قادرة على لجم فضولها، تسترق السمع الى ما يقوله.

ـ اجل... اجل... ادخلوه غرفة العمليات حالاً وسأوافيكم بأسرع ما يمكن.

اعاد دان السماعة الى مكانها ورجع الى المطبخ:

ـ لقد بلع احدهم عظمة دجاجة فعلقت في وسط القصبة الهوائية. هل تودين مرافقتي؟ انها فرصة لتطلعي على اجراءات الطوارىء في المستشفى.

في دقائق زالت الصورة التي كونتها جسيكا في مخيلتها، حتى الآن، عنه لتحل محلها صورة الطبيب الجاد والمخلص لمهنته، واحتارت كيف تفسر هذه الازدواجية في الشخصية وسرعته في التكيف مع الظروف، فاومأت برأسها موافقة وتناولت مفاتيح سيارتها وتبعته بهدوء الى الخارج.

بعد قليل كانت جسيكا تقف في غرفة العمليات تراقبه باعجاب يعمل بتأن ومهارة على سحب العظمة الصغيرة. نجاحه كطبيب جراح استحوذ على احترام معارفه واعجابهم، فتغاضى معظمهم عن عيوبه الاخلاقية.

بقي دان في المستشفى تحسباً لما قد يطرأ على صحة مريضه، بينما طلب من جسيكا العودة الى المنزل، فاطاعته من غير اعتراض، تريد وضع حد لهذا اليوم الطويل والمليء بالمشاكل والمفاجآت.

علقت جسيكا صور الأشعة أمام الشاشة المضاءة أمامها، وتراجعت قليلاً تتفحصها بهدوء. بدا واضحاً ان شيئاً ما يسد القناة الصفراوية ويوشك ان يهدد المثانة نفسها. وضعت يديها في جيبي سترتها البيضاء تحدق في الصور مستعيدة قول العمة ماريا لها.

«ما ان تضعوا أيديكم على مريض مسكين مثلي حتى تدخلوه المستشفى فلا يخرج الا وقد عملت مباضعكم في جسمه».

ارتسمت على محياها امارات الغم، فالحالة تتطلب اجراء عملية سريعة والعجوز الطيبة كانت مصيبة في حدسها.

افاقت جسيكا من شرودها شبه مذعورة على صوت دان ترافورد هاتفاً خلفها مباشرة:

- مساء الخير.

ليست المرة الأولى التي يتسلل فيها الى مكان تواجدها ويفاجئها بهذه الطريقة.

كادت ان تصرخ بوجهه علّه يقلع عن هذه العادة الوقحة، لكنه كان مشغولاً بالنظر الى صور الأشعة فلم يول انفعالها اي اهتمام.

- هل هذه صور العمة ماريا؟

اومأت برأسها متمتمة:

- أجل.

- أريد ان اهنئك على دقتك في التشخيص.

لم تحمل عباراته أية تهنئة بل نغمة من هزئه البغيض، لكنها تغاضت عن قصده وقالت ببرودة:

- شكراً يا دكتور ترافورد.

- هل تريدينني ان اجري العملية؟

- اني واثقة من قدرتي على اجرائها. وان كنت تشك في قدرتي فلا أمانع في ان تعاونني.

- ولا مانع عندي أيضاً. متى ستطلعينها على الأمر؟

اطفأت جسيكا ضوء الشاشة وأعادت الصور الى مكانها.

- سأعودها الآن وأخبرها عن موعد العملية مع علمي ان الأمر لن يروقها.

- انها تثرثر كثيراً، لكنها امرأة حساسة جداً وعاطفية أكثر من اللازم.

- لاحظت ذلك، لكن لا مناص من اجراء العملية بسبب خطورة انسداد المثانة. أليس كذلك؟

- بكل تأكيد. لا تنسي ان تطلعيني على المستجدات.

- سأفعل ذلك.

بعد دقائق كانت جسيكا تقف قرب العمة ماريا تطلعها على قرارها باجراء العملية وموضحة لها اهميتها ومخاطر تأجيلها، فلم تبد العجوز تأييداً للفكرة لكنها، وكما توقع دان علقت مجبرة على أمرها:

- ان كان لا بد من اجراء العملية يا صغيرتي، فمن البلاهة ان اعترض. ولكن أريد أن أعرف... موعد اجرائها.

- في أسرع وقت ممكن. ربما غداً اذا افلحت في حجز غرفة العمليات.

- موافقة، فاسراعنا في اجرائها يعني الاسراع في عودتي الى المنزل. أليس كذلك يا صغيرتي؟

لم تجب جسيكا مستسلمة لسكوت ثقيل ترك بصماته في انحاء الغرفة، وحدقة في باقة الزهر قرب سرير العجوز.

أوضحت العمة مبتسمة:

- جلبتها اوليفيا هذا الصباح.

- أوليفيا كينغ؟

اومأت العجوز ايجاباً واغمضت عينيها تستعيد صفحة من الماضي القريب.

- انها امرأة رائعة. لم تشهد هذه المدينة يوماً زاهياً كيوم زفاف أوليفيا وبرنارد كينغ.

- أكان احتفالاً كبيراً؟

شبكت العجوز يديها فوق صدرها هاتفة:

- يا صغيرتي. في ذلك اليوم بلغ عدد المدعوين المئات حتى ضاقت بهم قاعة البلدية. وساعة الزفاف فاق عدد الذين في الخارج الموجودين في القاعة. دمعت عيون الجميع حين دخلت اوليفيا القاعة متأبطة ذراع بيتر اوبريان.

ارادت جسيكا ان تصرف العمة ماريا عن التفكير بالعملية الجراحية،

فسألتها متعمدة الاهتمام:

ـ يبدو انك تكنين محبة خاصة لأوليفيا.

ـ علاقتي بها تعود الى ما قبل زواجها من برنارد. كانت تملك مكتبة وتقطن في شقة فوقها. لكن الأمور تبدلت اليوم واصبحت الشقة جزء من المكتبة. مضى على معرفتي بها ثلاث سنوات وكأنها البارحة، فأنا ما زلت اذكر اليوم الذي وصلت فيه أوليفيا الى لويزفيل، بقامتها النحيلة ونظراتها الضائعة.

ـ لقد طلبت مني الاشراف على ولادتها.

ـ أخبرتني بذلك، عندما رأيتك للمرة الأولى ذكرتني بها. فانتما تتشابهان قامة ونحافة.

ـ وهل هناك أفضل من الجسم النحيف يا عمتي؟

غشت مسحة من القلق وجه العجوز وتمتمت بتأفف:

ـ حتى الاطباء أحياناً يهملون الاهتمام بصحتهم. لماذا لم تتزوجي حتى الآن يا جسيكا؟

ـ لم أجد الوقت الكافي للتفكير بالزواج.

ـ عذر اقبح من ذنب. الوقت متوافر دائماً للتفكير بالزواج.

ـ هذا صحيح، شرط وجود الشخص المناسب.

ـ وما ادراك انك لم تجديه؟

ـ اعتقد اني سأعلم بذلك فور حصوله.

ـ هنا يكمن خطؤك يا حلوتي. احياناً تلتقين رجلاً ما وتعتقدين انه لا يناسبك ابداً، لكن عندما تزداد معرفتك به تكتشفين انه في النهاية رجل احلامك.

بدأ النقاش يغوص في أمور شخصية لا تحبذ جسيكا الخوض فيها الآن، وذكرها كلام العجوز بوالدتها يوم كانت تكلمها عن الزواج والرجال، فقالت بتململ:

ـ سأختار الزوج الذي يشاركني الميول والاهواء نفسها.

ـ أتعنين شخصاً مثل دان ترافورد؟

انتفضت جسيكا كمن لسعته أفعى:

ـ أرجو الا يكون مثله أبداً.

دافعت العجوز عن دان قائلة:

ـ سيكون زوجاً صالحاً ان صادف الفتاة المناسبة.

ـ لا أظن انني هذه الفتاة المناسبة. والآن اقترح ان تخلدي للراحة قبل ان يحين موعد زيارة اوم هابني.

للمرة الاولى منذ سنوات احست جسيكا بتورد وجنتيها وهي في طريقها الى الخارج. فنظرات رفاق العمة ماريا من المرضى تابعتها حتى الباب وكأنهم سمعوا كل ما دار بينها وبين مريضتها العجوز. أيعقل أن يصبح دان ترافورد زوجاً مثالياً؟ أبداً. وضحكت في سرها مستعيدة عبارات العمة عنه.

كيف يكون رجل بمثل سمعته زوجاً صالحاً وهل يتخلى عن مطاردة النساء وهو الذي يعتبر العلاقة بين الرجل والمرأة مقصورة على الهوى العابر؟ انها متأكدة من انها ستتفق مع سمكري أكثر من اتفاقها مع هذا الطبيب المهاتر.

لم تسنح الفرصة لجسيكا في فترة ما بعد الظهر للتفكير اكثر بحديثها مع العمة ماريا. لكنها ما ان عادت الى منزلها تلك الليلة، حتى عادت كلمات العجوز عن دان ترافورد تضج في رأسها بالرغم من ان العملية الجراحية التي ستجريها للعمة في الصباح الباكر تشغل حيزاً كبيراً من بالها. سيعاونها دان غداً وهي على يقين من انه لن يتوانى عن انتقادها كلماسنحت له الفرصة لذلك.

كانت جسيكا صائبة في مخاوفها من معاونة دان لها، فما ان التقت عيونهما في غرفة العمليات حتى احست بالارتباك. نظراته الباردة تحمل السخرية والاستخفاف. وقف قبالتها حول جسم العمة ماريا، بقناعه الابيض، فحاولت جسيكا قدر المستطاع تجاهل وجوده معها، لكنه ليس من الذين يسهل تجنبهم. شعرت وكأنها ما زالت طالبة في معهد الطب، وتقوم باجراء العملية الاولى تحت مراقبة استاذها، فزال الشعور بالثقة الذي خالجها قبلاً واغمضت عينيها علها تستعيد ثباتها ولم تتحرك الا لدى سماعها صوت المباضع وعربة آلة ضغط الدم.

استعادت بعضاً من الراحة فور تناولها المبضع من يد الممرضة وبدئها العملية. لم تعد تهتم لوجوده معها، ولا تبالي بنظراته المسلطة على يدها.

همها ان تتم العملية بنجاح، وتثبت له انها لا تقل كفاءة عنه كطبيبة.

خرج الاثنان من غرفة العمليات وتوجها معاً الى الكافتيريا لتناول فنجان من الشاي.

ـ كانت عملية ناجحة جداً يا دكتورة نيل.

نظرت اليه تدقق في بريق عينيه. لم يهزأ منها هذه المرة بل بدا جاداً وعفوياً، لكن رصانته لم تدم طويلاً بل اردف بشيء من التهكم القاتل:

ـ ولا يسعني سوى أن أنوه بتفوق الطبيبات على الاطباء في عملية التقطيب، فالعملية لا تتعدى الخياطة العادية بالنسبة اليهن.

لم تستسلم لهزئه البارد وقررت المجابهة:

ـ أهذه طريقتك للتعبير عن عدم رضاك؟

رفع دان حاجبيه يخفي ابتسامة اوشكت ان تفضح حقيقة قصده:

ـ لا يمكننا تجاهل بعض النقاط الجيدة، أليس كذلك؟

ابتسمت جسيكا بلؤم:

ـ شكراً يا دكتور ترافورد على هذا التشجيع اللطيف.

ـ ما أريد قوله يا دكتورة نيل ان هناك فارقاً بين الطبيب والطبيبة في اجراء العملية. فالطبيب يتجاهل من يكون المريض الممدد في غرفة العمليات، اما بالنسبة للطبيبة فالحالة تختلف تماماً. هذا لا يعني ان المرأة فشلت في ان تكون طبيبة او جراحة ناجحة، لكنها من غير ان تشعر تقحم عاطفتها في عملها مما يؤثر على تشخيصها وأحياناً كثيرة على نتيجة الجراحة.

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ بل أعرفه تمام المعرفة. كنت تتأملين وانت تعملين مبضعك في جسم العمة ماريا.

ـ كلامك عن المرأة في حقل الطب غير صحيح، لكني أعترف بكراهيتي للجوء الى المبضع عند انتفاء الضرورة الملحة. عرفت حالات كثيرة فقد اصحابها اجزاء من اجسامهم ارضاء لنزوات مبضع الجراح.

ـ لن اخوض في هذا الموضوع الآن، ما يهمني هو قدراتك كطبيبة جراحة فقط.

ـ أعتقد انك ستلقي علي محاضرة حول كيفية اجراء عملية جراحية، أليس كذلك؟

ـ كلا، فلا مأخذ على مهارتك الفنية في اجرائها.

ابتسمت ببرودة تحاول اخفاء نبرة الحنق في صوتها:

ـ حقاً؟

ـ حالتك العاطفية اثناء اجراء العملية هي التي تقلقني.

ـ أظن اننا ندور في حلقة مفرغة. تصرفاتي خلال العملية عاطفية جداً، أهذا ما تود قوله؟

ـ تماماً.

وقفت جسيكا معلنة انتهاء المحادثة ورمقته بنظرة ثاقبة:

ـ لا أوافقك الرأي يا دكتور ترافورد، فأنا في النهاية امرأة ولا اعتقد انه بمقدوري تغيير ذلك.

ـ هذا ما لن أسألك فعله أبداً، فأنا معجب بانوثتك يا دكتورة نيل.

فعلت فيها نعومة عبارته فعلها السحري وأحست بقشعريرة لذيذة تسري في جسمها، فتبعث فيه الفرح وتزرع في انحائه شعوراً اخاذاً لم تحسه منذ زمن. التفتت اليه بعد تردد ولبثها لم تفعل، فالبريق الغريب لم يهجر عينيه الرماديتين ابداً.

انهما عينا دان ترافورد، الرجل الخبير بالنساء وكيفية اشعال النار في اجسامهن، ولا بد انه يدرك كل الادراك ما تفعله الآن كلماته فيها.

قالت بصوت خافت يرزح تحت ثقل انفعالها:

ـ سألقي نظرة اخيرة على العمة ماريا قبل ان اطمئن أوم هايني.

وقف دان في طريقها مستوضحاً بنبرة تحبّب تذوب بفعلها القلوب الرقيقة:

ـ أتضايقك نظرتي اليك كامرأة بدلاً من طبيبة يا جسيكا؟

أذكت نبرته النار في وجنتيها من جديد.

ـ لا ابداً يا دكتور ترافورد، فهذا من شأنه ان يسعد والدتي عندما تعلم ان ابنتها لم تفقد كل انوثتها بالرغم من اختيارها الطب مهنة لها.

مد يده بخفة تاركاً انامله تطوق معصمها قبل ان تتمكن من التحرك:

ـ امنحيني فرصة لاثبت لك بأي قدر من الانوثة تتمتعين.

تخلصت جسيكا من قبضته وتراجعت بضع خطوات محاولة اخفاء اضطرابها المتزايد واجابت بهدوء شبه مصطنع:

- لا أشك لحظة في قدرتك، لكني لست راغبة في اكتشاف ذلك.

توجهت الى جناح العمة بوجه عابس يرزح تحت تأثير جلستها مع دان، لن تكون ابدا المرأة التي ستلعب ذلك الدور في حياة هذا الطبيب المخادع. كانت واثقة من قدرتها التامة على كبت مشاعرها والتحكم بعواطفها، لكن هذه المرة وبطريقة لم تعهدها من قبل تمكن دان من اضعاف هذه القدرة لديها. ستلزم جانب الحذر منه في المستقبل، وتتجنب قدر استطاعتها الاختلاط به بالرغم من استحالة هذا الأمر لاضطرارها للعمل الى جانبه.

في بداية اسبوعها الثاني في لويزفيل، جلست جسيكا في عيادتها تتأهب لاستقبال مرضاها، حين دخل عليها جايمس بوشوف حاملاً قبعته المعهودة بيديه الخشنتين.

نجحت جسيكا في منع نفسها من الابتسام وقالت مرحبة:

- أهلاً يا سيد بوشوف، أظنك تود رؤية الدكتور اوبريان او ترافورد.

أجاب المزارع بصوت خافت:

- آه... جئت لأخبرك ان الدواء الذي وصفته لي كان ناجعاً جداً، ولم أعد أكثر من التدخين كالسابق.

- يسرني سماع هذا يا سيد بوشوف:

سكت المزارع للحظات ثم قال:

- السيدة دلبورت تتحدث عنك باستمرار وعن معاملتك الرائعة لها. لقد طرأ تحسن كبير على صحتها.

ادركت جسيكا ان العجوز تقوم بحملة دعائية لها في لويزفيل.

- انها سيدة ممتازة.

- هل تريدين معاينتي الآن؟

ضحكت جسيكا في سرها لما لاحظته من تبدل في تصرفات هذا المزارع الفظ.

لم تدم المعاينة طويلاً، نزعت بعدها جسيكا السماعة الطبية ووضعتها على الطاولة.

فسألها جايمس بوشوف مستوضحاً:

- ألست أفضل حالاً من المرة السابقة؟

- نعم هناك تحسن في صحتك، لكن عليك ان تثابر على تناول الدواء

بصورة منتظمة ولا تنسَ ان تقلل من التدخين الى ادنى حد.

- شكراً يا دكتورة، هل اعود للمعاينة مرة اخرى؟

- اذا لم يطرأ تحسن على حالتك والا، فلا حاجة لذلك.

- حسناً، الى اللقاء.

اغلقت جسيكا الباب خلفه، وعادت الى مكتبها تعيد توضيب الملفات المتناثرة هنا وهناك.

- يبدو ان المزارع المعتوه لقي صعوبة في الابتعاد عن لمساتك الحنونة.

التفتت جسيكا ناحية مصدر الصوت، لتفاجأ بدان وقد اصبح في وسط الغرفة يتقدم منها بعضلاته المفتولة، وقامته التي تطفح رجولة وجاذبية من تحت ردائه الابيض. وجوده في مكتبها يربكها، فنظرتها اليه تتغير يوماً بعد يوم... لم تعد نظرة تحد بل نظرة ضعف واضطراب امام هاتين العينين المسلطتين عليها ببريقهما التهكمي الوقح.

- اظن ان السيد بوشوف اكتشف في النهاية اني لست طبيبة فاشلة.

- لو كنت جايمس، لما كانت مهارتك الطبية السبب الوحيد لعودتي.

نهضت جسيكا عن مقعدها بجبية بنبرة حادة:

- لقد حان موعد عودتي الى المنزل.

تراجع دان نحو الباب معترضاً طريقها:

- ليس بهذه السرعة، فقد تلقينا مخابرة عن اصابة احد العمال في مزرعة مجاورة، وارتأى بيتر ان ننتقل معاً الى هناك لتعذر نقل المريض المصاب في عموده الفقري. انها فرصة لك لتتعرفي على المزارع.

تبخر حلمها بقضاء ليلة هانئة في منزلها، فخلعت ثوبها الابيض وتناولت الحقيبة الطبية:

- حسناً، هلا ذهبنا يا دكتور ترافورد؟

- سنذهب في سيارتي.

بعد فترة قصيرة، كانت سيارة دان تشق طريقها بين غابات كثيفة من القصب تلقي بظلالها على الممر الرملي الضيق. جلست صامتة ترقب غروب الشمس وتنصت الى شرح دان عن المزارع وحالة مالكيها والعمال فيها.

- يعتبر برنارد كينغ شقيق فيفيان من أغنى المزارعين في هذه المنطقة،

وتقع مزرعته الى الشمال من لويزفيل. غناه يفوق دل بمرات عديدة على الناس يلقبونه هنا بملك القطعان.

لم تنبس جسيكا ببنت شفة. كانت تفكر في فيفيان وأولادها، وهم هما محظوظتان في وقوعهما على شخصين مثل برنارد وبيتر. سلكت السيارة طريقاً جانبية وعرة، انتهت الى فسحة رملية امام مزرعة صغيرة تجمهر في ساحتها جمع من العمال، تقدم أحدهم من السيارة فور توقفها وأخبرهما ان احد العمال سقط عن سطح الاسطبل اثناء نقله أكياس العلف.

سارع دان الى اجراء الاسعافات الأولية قبل حلول الظلام، تعاونه جسيكا والتفت اليها قائلاً:

ـ اننا بحاجة الى سيارة اسعاف. اتصلي بالمستشفى وأعلميهم بحالة المصاب.

اجرت جسيكا المكالمة من منزل صاحب المزرعة... اصابة العامل بالغة لكنها لن تعرف مدى خطورتها الا بعد اخذ صور أشعة له.

تشخيصها الفوري اظهر ان الصدمة أثرت على عموده الفقري وربما أتلفت احد الاعصاب الاساسية فيه.

عندما عادت الى قرب دان، ادركت من نظرته الى العامل انه يشاطرها رأيها في حالته الصحية. فجلست قربه تهدىء روع الرجل الطريح ريثما تصل النجدة.

بدأ الظلام يرخي ستاره على المكان عندما وصلت سيارة الاسعاف خارقة السكون المخيم على المزرعة بدوي منبهها، مطلقة اشارات ضوئية متلاحقة، فتفرق العمال مفسحين في المجال للمسعفين لنقل المصاب الى داخل السيارة، بينما أعاد دان الآلات الطبية الى حقيبته.

ـ هل بامكانك قيادة السيارة، فسأضطر لمرافقة العامل في سيارة الاسعاف؟

ـ أظن ذلك.

ناولها دان علاّقة مفاتيحه:

ـ سألقاك في المستشفى اذن.

صعد الى داخل سيارة الاسعاف ووقفت جسيكا برهة ترقب غياب اضواء السيارة المسرعة عن ناظريها. ثم استقلت سيارة دان متوجهة

الى المستشفى.

اوقفت السيارة في الموقف المخصص للأطباء. واتجهت بسرعة الى غرفة الطوارىء حيث التقت دان، فبادرته مستفهمة:

ـ كيف حاله؟

مرر دان يده على شعره الداكن مطلقاً زفرة طويلة.

ـ انه في غرفة الأشعة.

ـ ما رأيك في الاصابة؟

ـ لا أريد ان اتسرع في اعطاء الرأي لكني اعتقد انه مع قليل من الحظ والرعاية سيستعيد عافيته في وقت قريب.

ـ من حظه انهم لم يعملوا على نقله قبل وصولنا.

ـ ستتأخر نتيجة الأشعة بعض الوقت، هل تشاركيني فنجاناً من القهوة؟

ـ سأقبل دعوتك هذه المرة.

أمسك دان بيدها معلقاً بسخرية:

ـ كنت متأكداً من موافقتك.

سارت الى جانبه غير واثقة من صواب عملها، فهي لا تعلم شيئاً عن خطوتها التالية وكأنها تسير في المجهول. جل ما تدركه هو الخطر المحدق بها وهي تشهد الوهن يدب في قدرتها على التحكم بعواطفها وشعورها نحو هذا الرجل الغريب السائر بقربها.

٤ـ لا شك انه لاحظ انهيار مقاومتها لنظراته الوقحة. كيف يقدر على اثارة اعصابها واللعب بأحاسيسها! عليها ان تسرع في التصرف قبل ان يفوت الأوان...

جلست جسيكا في مقهى المستشفى ترشف على مهل فنجان القهوة مستمعة الى عبارات دان المجبولة بنبرة الهزء المعتادة:

ـ ان لم تخني الذاكرة فنحن لم نستطع اكمال قهوتنا في جلستنا الأخيرة هنا.

لا شعورياً ضحكت جسيكا معلقة:

ـ قد يتكرر الأمر الآن، فلنتمنّ ان ننهي قهوتنا قبل حدوث أي طارىء.

ـ اني اشاركك هذه الأمنية.

فوجئت جسيكا بمسحة القلق التي غشت عينيه وهو يحتسي قهوته ولكنها احجمت عن الخوض في موضوع قد لا تكون لها علاقة به.

ـ ما الذي دفعك الى اختيار الطب مهنة لك يا جسيكا؟

ـ أظنه نفس السبب الذي يدفع أي شخص الى ذلك.

ـ من جهتي، لدي أسباب كثيرة قد لا تكون كلها وجيهة (وعلا وجهه تجهم مفاجىء) قررت ان اكون طبيباً بعد ان قتل والداي على يد ارهابيين في احدى مزارع زيمبابواي. لو كنت ملماً حينها بالأمور الطبية كما انا اليوم، لربما تمكنت من انقاذ حياتهما (قدم لها سيكارة ولما اعتذرت شاكرة اشعل واحدة مردفاً) كنت قد اخترت الصيدلة لكن تلك الحادثة حولتني الى الطب.

أحست جسيكا برغبة جامحة لمشاركته هذه الذكرى الحزينة لكنها لم تكن واثقة من ان مواساتها ستلقى قبولاً منه في هذه اللحظة.

ـ لا شك ان تلك الحادثة وقعت أبان الحرب الأهلية في زيمبابواي.

ابتسم دان فجأة وقال بدهاء:

ـ ان كنت تحاولين معرفة عمري فسأوفر عليك مشقة ذلك، أنا في الخامسة والثلاثين.

ـ لم أقصد...

لم يدعها تكمل عبارتها وحملق في عينيها بجسارة توردت بفعلها وجنتاها:

ـ لا، بل قصدت. والآن، بعد ان عرفت سبب اختياري الطب اخبريني عن أسبابك.

احست جسيكا بجفاف في حلقها، فرشفت قهوتها قبل ان تجيب:

ـ لا اذكر ابداً اني تمنيت مهنة أخرى.

ـ أتعنين انك لم تفكري في مهنة اخرى قد تناسبك اكثر؟

امتنعت عن اطلاعه على دور والدها وتأثيره عليها في اختيار مهنة الطب، فأطبقت عينيها مجيبة:

ـ لا أظن ان هناك مهنة اخرى تناسبني اكثر من الطب.

عندما نظرت اليه من جديد فوجئت ببريق ينبعث من عينيه لم تستطع تحديد معناه.

ـ هناك مهنة اخرى كانت لتناسبك اكثر في هذه الفترة من حياتك، ولا تحتاجين فيها الى شهادة جامعية.

رافقته وهو يطفىء سيكارته وعلقت بجفاء:

ـ أخالك ستمضي قدماً في ملاحظاتك حتى ولو اظهرت لك عدم اهتمامي.

التفت عيونها للحظات، وأحست بنظراته تخترق جلدها الرقيق لتغوص في داخلها وتتسمر في صدرها الصغير.

ابتسم لها من غير ان يرفع نظره عن صدرها معلقاً:

ـ ما يناسبك الآن هو علاقة حميمة.

اجابت جسيكا بنبرة ساخرة:

ـ علاقة حميمة معك على ما اعتقد، أليس كذلك؟

ـ يسعدني كثيراً ان تمنحيني هذه الفرصة الرائعة.

- أتقصد اني مجبرة على ذلك؟
- يؤسفني ان تسيئي الحكم علي يا جسيكا.
- ويؤسفني اني هدرت وقتي في الاستماع اليك.

علا صوت المذياع في احدى زوايا القاعة مطالباً الدكتور ترافورد بالتوجه حالاً الى غرفة الاشعة.

هرول الاثنان في الممر الفسيح المؤدي الى الغرفة، ولدى وصولها الى الباب امسك دان بيدها قائلاً:

- خسارة ان لا نتمكن من انهاء هذه المحادثة المثيرة.

لم تجب مكتفية بسحب يدها بعنف من بين انامله، ودخلت الغرفة على عجل.

أكدت الصور ظنونها بحالة العامل المصاب، فبادر دان الى اعطاء التعليمات للممرضات، ثم اختلى بجسيكا لثوان يتناقشان الأمر:

- أعرف طبيباً مختصاً بجراحة الاعصاب في لويس تريشارد وسأستشيره في الصباح.

اوقف دان سيارته في ساعة متأخرة من الليل قرب سيارة جسيكا، واستدار ناحيتها بعينيه اللامعتين:

- تصبحين على خير يا جسيكا، هل لي ان اتمنى لك ليلة هانئة في سريرك الموحش؟

أجابت جسيكا موضحة بلهجة صارمة:

- لا أجد سريري موحشاً ابداً يا دكتور ترافورد، وأنا بكل صراحة من الذين يفضلون النوم وحدهم.

- لكنك بعملك هذا تضيعين فرصة مثيرة للغاية يا دكتورة نيل.

ترجلت جسيكا من السيارة حاملة حقيبتها:

- هذه وجهة نظرك ولكن الأمر لا يضايقني ابداً.

- ستغيرين رأيك في المستقبل القريب.

- لا اعتقد ذلك. على كل حال طبت مساء وشكراً على ايصالي الى هنا.

لم تكن واثقة من جوابها وتراءى لها دان وهي تدير محرك سيارتها، ضاحكاً يسخر من عبارتها ويمني نفسه بنيل مأربه منها واضافة اسمها الى لائحة ضحاياه من النساء. لا شك في انه لاحظ ضعفها وسرعة انهيار مقاومتها

لنظراته الوقحة. لم تصدف شخصاً مثله في حياتها، قادراً على اثارة اعصابها واللعب بأحاسيسها. انه في نظرها طبيب ماهر، لكنه يجمع الى جانب مهارته في الطب اجادته فنون اغواء النساء، وزاد من غطرسته انه يعرف تمام المعرفة مدى تأثيره عليها وجعلها تعجب به كرجل أكثر منه كطبيب.

اقلقها استنتاجها هذا، وبعث اكتشافها حقيقة أحاسيسها في نفسها خوفاً، وتصميماً على الاسراع في التصرف قبل ان يفوت الأوان.

ثلاثة أسابيع مضت، تمكنت جسيكا خلالها من زيادة معرفتها للويزفيل وتوثيق علاقتها بسكانها. وبدأت تعتاد نمط عملها، والتغلب على الحالات الطارئة التي ما برحت تصادفها منذ وصولها، والتي ساهمت في محو الرتابة التي رافقت عملها في جوهانسبرغ.

مشكلة وحيدة لم تقو على ايجاد حل لها: دان ترافورد، فهو لم ييأس ابداً من محاولة اغرائها وايقاعها في شباكه.

حتى الآن لم يقم بخطوة خاطئة تجاهها، لكنها كانت متأكدة من انه سيفعل عاجلاً ام آجلاً.

غادرت جسيكا عيادتها متوجهة الى المرآب بعد نهار حافل بالمرضى وبالمعاينات، واستقلت سيارتها تمني نفسها بقضاء ليلة هانئة تلجأ فيها الى كتاب جيد تدفن تعبها وارهاقها بين صفحاته.

لكنها ما ان أوقفت سيارتها أمام مسكنها، حتى شاهدت فيفيان تهرول في اتجاهها وعلامات القلق والغم على وجهها.

لم تعط جسيكا فرصة للسؤال بل جلست في السيارة قائلة بارتباك:

- الامر يتعلق باوليفيا، سأرشدك الى منزلها في ماونتين فيو وأشرح لك الأمر في الطريق.

سارعت جسيكا الى ادارة محرك سيارتها من جديد وأقلعت بها بسرعة.

لقد تأخرت اوليفيا عن موعد ولادتها عشرين يوماً ولا بد وان الانتظار قد أثر على اعصابها.

بادرت فيفيان الى شرح ما حصل لاوليفيا وهما يسلكان الطريق المؤدي الى المزرعة:

- طلبت اوليفيا من فرانسين ان تتصل بك، لكن الفتاة المسكينة اصيبت بالذعر عندما اخبروها انك غادرت عيادتك، فاتصلت بي. ولسوء حظها لم

يكن برنارد في المنزل فقد خرج للصيد، ولا تعتقد اوليفيا انه سيعود باكراً. هذا كل ما استطاعت الصغيرة اخباري به، اضافة الى ان اوليفيا ارسلت في طلبك على جناح السرعة الى المزرعة.

التفتت جسيكا الى مرافقتها المضطربة تسألها:

ـ اما زال المكان بعيداً؟

ـ مسافة خمسة كيلو مترات تقريباً.

في نهاية الطريق الترابية الوعرة بدا منزل اوليفيا في الجهة الاخرى، قابعاً بين اشجار السرو وقد بانت شرفاته ذات اللون الابيض تطل على السهل الاصفر الفسيح كحبة لؤلؤ تزين جيد حسناء سمراء.

ما ان اوقفت جسيكا السيارة في ظل احدى الاشجار، حتى فتح الباب الرئيسي وخرجت منه فتاة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، مهرولة ناحية فيفيان وشعرها الكستنائي يطير على كتفيها. وارتمت في احضانها هاتفة بتأثر:

ـ عمتي فيفيان، كم انا سعيدة لقدومك.

ـ لا تقلقي يا عزيزتي، هذه الدكتورة نيل وكل شيء سيكون على ما يرام. اخرجي يا حبيبتي الى الشرفة وانتظري والدك.

قطبت فرانسين حاجبيها معترضة:

ـ لكني اريد مساعدة أمي.

تقدمت جسيكا من الصغيرة وغمرتها بحنان:

ـ أعدك يا فرانسين بأن اناديك اذا احتجت لأية مساعدة.

ابتسمت الصغيرة بحياء وأجابت راضخة:

ـ حسناً، كما تشائين يا دكتورة نيل.

في غرفة النوم الكبيرة بدت اوليفيا شاحبة الوجه وقد تمددت على السرير من غير حراك لكنها ما ان سمعت الباب يفتح حتى فتحت عينيها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ارتياح ورضى، وتمتمت بصوت منخفض ترحب بالقادمتين:

ـ تسرني رؤيتكما الى جانبي. لم أقو على التحرك من مكاني والا لكنت وفرت عليكما مشقة القدوم الى هنا.

صاحت فيفيان بهلع:

ـ اياك والتحرك، قد تعرضين نفسك والجنين لخطر محتم.

وضعت جسيكا حقيبتها على الارض وجلست بالقرب من اوليفيا مستوضحة:

ـ متى أحسست بالألم؟

ـ سأكون صريحة معك. شعرت بألم في الصباح لكني حسبته تشنجاً في المعدة كالعادة. وعندما زال أيقنت من اني كنت مصيبة في ظني ولا شيء يدعو للقلق. لكن الألم عاودني منذ اكثر من نصف ساعة و...

عاودتها نوبة الألم مجدداً فلم تكمل عبارتها. فوضعت جسيكا يدها على جبينها تهدىء من روعها:

ـ استرخي ولا تقلقي وتنفسي بهدوء وعمق.

انتظرت جسيكا زوال الألم وباشرت في معاينة مريضتها، لكنها ما ان انتهت من ذلك حتى عاد الوجع أشد وأقوى.

هتفت فيفيان باضطراب:

ـ يا الهي. ماذا سنفعل يا جسيكا؟

فتحت الدكتورة نيل حقيبتها تتفحص محتوياتها وأجابت بهدوء كلي:

ـ اعتقد ان الولادة ستتم في هذه الغرفة.

جحظت عينا فيفيان وصاحت برعب:

ـ تقولين ذلك وكأن الأمر سيحصل بعد لحظات.

ـ ستحصل الولادة قريباً لكن أمامنا متسعاً من الوقت لاجراء الترتيبات الضرورية.

اصدرت جسيكا تعليماتها بثقة وهدوء مما بعث الطمأنينة في نفس فيفيان:

ـ الي بوعاء من الماء الساخن وبعض المناديل النظيفة وأعملي على ابقاء الصغيرة خارجاً. لن يستغرق الأمر اكثر من نصف ساعة.

جلست جسيكا الى جانب اوليفيا تمسح جبينها المتصبب عرقاً:

ـ لا تخافي يا عزيزتي، كل شيء يسير بصورة طبيعية.

أغمضت الحامل عينيها متأوهة وقد ازداد شحوب وجهها.

ـ يا الهي. ليت برنارد هنا.

اجابت فيفيان وهي تضع وعاء الماء الساخن قرب السرير:

ـ لو عرف ماذا يحدث لطار الى هنا ليكون بقربك في هذه اللحظة، فانت تعلمين مقدار حبه لك.

عاودتها نوبة الألم مرة أخرى فامسكت بغطاء السرير تشده بين يديها:

ـ أجل... أجل أعلم ذلك. وجوده الى جانبي يريحني، ويجعلني أشعر بالامان.

جثت فيفيان على ركبتيها عند حافة السرير ومدت يديها الى أوليفيا:

ـ امسكي بيدي يا عزيزتي واتركي الباقي لجسيكا.

وضعت اوليفيا مولوداً صبياً كامل النمو، عملت جسيكا على لفه ووضعه قرب اوليفيا، بينما اهتمت فيفيان بتنظيف المكان. بعد قليل وصلت فرانسين، ووقفت عند الباب تسأل بارتباك:

ـ لقد سمعت صراخ طفل، هل بامكاني رؤيته والاطمئنان على أمي؟

ضمتها فيفيان الى صدرها هاتفة:

ـ بكل تأكيد يا حبيبتي.

هرعت الطفلة الى امها تقبل وجنتيها ثم حدقت بالمولود الجديد طويلاً وقالت:

ـ انه صغير جداً. هل سينمو يا اماه؟

أشرق وجه اوليفيا بعد شحوب وهي تغمر ابنتها:

ـ سينمو يا عزيزتي حتى يصبح في مثل قامتك يوماً ما.

ضربت الطفلة كفاً بكف وكأنها تذكرت شيئاً والتفتت ناحية جسيكا وفيفيان هاتفة:

ـ حضرت ايفلينا القهوة ووضعتها في غرفة الجلوس. سأبقى مع أمي الى حين عودتكما.

ترددت فيفيان في الذهاب لكن جسيكا ربتت على كتفها موافقة:

ـ فنجان كبير من القهوة هو أفضل ما نحتاجه الآن.

جلست الاثنتان في غرفة الجلوس ترشفان القهوة بهدوء وارتياح، فالعشرون دقيقة التي استغرقتها عملية الولادة كانت صعبة على الجميع.

رفعت فيفيان رأسها تجيل النظر في ارجاء القاعة وقالت بتأثر:

ـ لقد ترعرعت في هذه المزرعة وفي هذا المنزل بالذات، وشهدت حيوانات كثيرة تلد وفي كل مرة كنت اخرج مندهشة. اليوم عندما شاهدت

ولادة الطفل شعرت بفراغ في حياتي واكتشفت ان أجل مرحلة من مراحل الزواج قد فاتتني.

بدا التأثر على وجه جسيكا واحتارت بما تجيب، فالألم الساكن في عيني محدثتها أكبر من ان يزيله سؤال او تخفف منه مواساة.

بدأ الظلام يدب في انحاء المزرعة مبشراً بهبوط الليل، وخيم سكون ثقيل على غرفة أوليفيا حيث جلست جسيكا وحيدة تراقب الأم وطفلها. فجأة علا هدير شاحنة في الخارج وسرعان ما تهادى الى مسمع جسيكا وقع خطوات سريعة في الرواق المؤدي الى الغرفة، وصوت رجل يسأل باضطراب:

ـ أين هي؟ اين اوليفيا؟

طمأنته فيفيان بنبرة هادئة:

ـ انها في غرفتها يا برنارد، ولا شيء يدعو للقلق.

صعد برنارد كينغ السلالم المؤدية الى غرفة النوم وهو يلعن الصيد والصيادين بصوت عال مما جعل جسيكا واوليفيا على تبادل نظرات ضاحكة قبل ان يفتح الباب بقوة. وقف برنارد عند الباب بقامته الطويلة وشعره الاسود وقد خططه الشيب، متجهم الوجه يوزع نظراته النارية المضطربة بين زوجته وجسيكا. فجأة علا صراخ الطفل فتبدلت سحنة الأب وغاب الحنق والقلق من عينيه فمسح وجهه بيده وكأنه لا يصدق ما تراه عيناه. وتقدم من زوجته وجثا قرب السرير يغمرها والطفل بحنان هامساً بتأثر:

ـ أوليفيا؟

التفتت جسيكا الى فيفيان قرأتها مأخوذة بذلك اللقاء المؤثر تحدق في العائلة الصغيرة، بعينين دامعتين وابتسامة حزينة وتشاركهم احساساً لم يراود قلبها من قبل.

نظرت اوليفيا الى جسيكا وقد امسكت بيد زوجها:

ـ أرجو المعذرة يا جسيكا، اقدم لك زوجي برنارد (وتطلعت الى برنارد مردفة) انها الدكتورة جسيكا نيل.

هب الزوج السعيد واقفاً ومد يده مصافحاً جسيكا بحرارة وقوة.

ـ معرفتك تشرفني يا دكتورة، وشكراً على مساعدتك لاوليفيا.

ـ لا شكر على الواجب.

تطلعت اوليفيا الى زوجها سائلة:
- الن تحمل طفلك يا برنارد؟
ثلاثة ازواج من العيون راقبت برنارد وهو يقترب من السرير الصغير وينحني ليحمل الطفل الغارق في لفته القطنية يغط في نوم عميق.
هتف الأب مازحاً:
- يا له من طفل بشع.
جارته اوليفيا في مزاحه:
- هذا شيء طبيعي، فهو يشبه والده تماماً.
علت ضحكة برنارد مدوية، وجلس من جديد قرب زوجته:
- اني استحق جواباً كهذا. أليس كذلك؟
أجابت فيفيان مبتسمة:
- بكل تأكيد (ونظرت الى جسيكا توضب اغراضها في الحقيبة تتهيأ للرحيل واردفت) لقد اتصل بيتر وسيوافينا بعد قليل وطلب مني ان امنعك من مغادرة المزرعة قبل تناول العشاء.
همّت جسيكا بالاعتذار:
- اني مضطرة...
لكن اوليفيا قاطعتها بلطف:
- ارجوك البقاء يا جسيكا.
لم تقو على مقاومة نبرة التحبب في عبارة اوليفيا فأومأت برأسها موافقة.
جلس الجميع ما عدا اوليفيا الى طاولة العشاء في جو من المودة، افتقدته جسيكا منذ مغادرتها جوهانسبرغ، يستمعون الى فرانسين تعيد عليهم ما حدث خلال غياب والدها عن المنزل. وحدها جسيكا لاحظت مدى تأثر فيفيان وهي تصغي بشغف الى الطفلة وتمسح بين الحين والآخر دموعها. احتارت كيف تفسر احجام هذه المرأة عن الانجاب بالرغم من ولعها الشديد بالاطفال. لا بد من وجود سبب وستسعى الى اكتشافه بطريقة او بأخرى.
اشارت عقارب الساعة الى الثامنة، فنهضت جسيكا عن كرسيها معتذرة وتوجهت الى غرفة اوليفيا لتودعها فوجدتها ما زالت مستلقية في فراشها والابتسامة لم تفارق شفتيها.

- كيف حال الأم الصغيرة؟
- جسيكا... لم تسنح لي الفرصة لاشكرك.
همست الدكتورة بنبرة حنونة ممررة يدها على رأس مريضتها:
- لم أقم سوى بواجب الصداقة يا عزيزتي.
- بل اكثر من ذلك بكثير. لا ادري ما كنت سأفعل لولاك.
- عليك بالراحة عدة أيام حتى تستعيدي نشاطك، فكما اعتقد لست بحاجة لمستشفى. سأزورك يومياً للاطمئنان عنك وعن الطفل. ماذا ستسمينه يا اوليفيا؟
- لم نقرر بعد.
علا صوت برنارد قرب الباب:
- لدي الاسم المناسب له.
- يا لك من جاسوس يا حبيبي. ما هو الأسم الذي اخترته؟
- لم اجد أفضل من لوغان اسماً له.
علت الدهشة وجه الزوجة بينما التفت برنارد الى جسيكا موضحاً:
- انه اسم عائلة اوليفيا قبل الزواج.
- انه اسم جميل ويليق بهذا «السيد» النائم هنا. حسناً يا لوغان سأراك غداً.
التفت جسيكا اثناء خروجها بيتر اوبريان في غرفة الجلوس فنهض مودعاً:
- سأرافقك الى السيارة يا جسيكا.
وما ان صارا في الخارج حتى سألها باهتمام:
- هل تمت الولادة على ما يرام؟ هل من مضاعفات؟
- لا ابداً.
بدا الارتياح على وجه الطبيب فهتف:
- عظيم. انت تعلمين ان اوليفيا ما زالت فتية، واعترف اني لم أتوقع لها ولادة طبيعية ولكن... عندما يتعلق الأمر باحد الاقارب، اجد نفسي في حالة يرثى لها من القلق والاضطراب. انها احدى نقاط ضعفي على ما اعتقد.
- هذا شيء طبيعي يا دكتور. ارجو ان تكرر شكري لفيفيان وفرانسين

www.liilas.com

فقد ساعدتاني كثيراً.

وصلت جسيكا الى منزلها بعد التاسعة بقليل، وما ان همت بالاستحمام حتى رن الهاتف وتهادى صوت دان ترافورد بوضوح معاتباً:

- حاولت الاتصال بك طوال السهرة. أين كنت؟

احست بخفقات قلبها تتسارع وأجابت بطريقة عفوية:

- كنت في مزرعة آل كينغ، فالسيدة كينغ وضعت مولوداً بعد الظهر.

- أتعنين ان الطفل ولد في المزرعة؟

- أجل.

لم يتمالك دان نفسه عن الصراخ:

- ولماذا لم تنتقل الى المستشفى؟

- لم يكن هذا ممكناً، فزوجها خرج للصيد منذ الصباح.

- كان بامكانك تدبير سيارة اسعاف لنقلها الى المستشفى.

- لم يكن لدي الوقت الكافي.

سألها بنبرة حانقة:

- ماذا تعنين بالوقت الكافي؟

ردت جسيكا ببرودة مقصودة:

- كانت اوليفيا على وشك الوضع حين وصلت المزرعة.

- ليس هذا سبباً مقنعاً يا دكتورة نيل. أتعلمين نوع المضاعفات التي قد تحصل في حالات مماثلة؟

- أعلم، لكن...

- اذن، لماذا لم تعمدي الى ادخالها المستشفى؟

جاهدت جسيكا في السيطرة على نفسها:

- لأني اخذت بعين الاعتبار يا دكتور ترافورد ان مريضتي ستفضل الاستلقاء في سريرها على التمدد في صندوق سيارة الاسعاف وهي تلد طفلها.

علّق بلهجة ساخرة:

- كلام مقنع. يبدو انك تحملين في حقيبتك غرفة للطوارىء تدخلين اليها المريض عند الضرورة.

- لا حاجة للهزء الآن.

- يا إلهي. أنا لا اهزأ منك.

- ماذا تفعل اذن؟ اتقصد اني عاجزة عن معالجة الحالات الطارئة؟

- وكيف أعلم ان كنت قادرة أم لا؟

- حسناً، اقترح ان تحتفظ بآرائك لنفسك يا دكتور ترافورد الى ان تتأكد من مقدرتي.

- لا تسيئي فهمي يا جسيكا. اردت ان أبين لك استحالة التغلب على أية مضاعفات عند عدم وجود الآلات المناسبة.

اعترفت في قرارة نفسها بصواب كلامه. لكنه لو كان محلها وعاين اوليفيا، لوافقها على ان طلب سيارة اسعاف لم يكن ضرورياً.

- فعلت ما ظننته الأفضل لأوليفيا.

- كنت أتوقع تعليلاً كهذا من امرأة.

- ماذا تعني يا دكتور ترافورد؟

- من المعلوم ان النساء يتجرفن وراء العاطفة عند اتخاذ قراراتهن، وانت خير اثبات على ذلك.

- لا علاقة للعاطفة بقراري يا دكتور ترافورد (أحست انها تكاد تفقد السيطرة على نفسها) هل هناك ما تضيفه يا دكتور ترافورد؟

- أجل، لكني سأحتفظ به.

اقفلت الخط بيدين ترتجفان سخطاً واضطراباً، وهتفت بأعلى صوتها:

- لعنة الله على الرجال.

أحست باحتقان مؤلم في عينيها، وبرغبة جامحة في البكاء.

لم تهنأ جسيكا بالراحة طوال الليل. تلقت بعد منتصف الليل مخابرة من المستشفى تدعوها بسرعة الى غرفة الطوارىء، ولم تعد الى منزلها الا عند الفجر. فاستحمت وبدلت ثيابها ثم جلست على الشرفة ترقب شروق الشمس وتتناول فطوراً خفيفاً.

حاولت قبل توجهها الى العيادة اخفاء علامات الاعياء على وجهها بالتبرج والاكثار من المساحيق، لكن ما ان صادفت الممرضة هانسن حتى بادرتها الاخيرة مستوضحة:

- يبدو انك قضيت ليلة رهيبة، ويؤسفني ان اخبرك ان الصباح لن يكون أفضل حالاً. الدكتور اوبريان توجه الى المستشفى، والدكتور ترافورد

منهمك في معاينات خارجية، مما يعني انك مسؤولة عن المكان باكمله الآن، خاصة ان غرفة الانتظار تعج بالمرضى.

ارتدت جسيكا سترتها البيضاء متصنعة الابتسام:

- اذن، هلا ارسلت المريض الاول يا آنسة هانسن؟

كانت بداية النهار متعبة للغاية، وبدا وكأن عدد المرضى لن ينتهي ابداً. لم تصادفها حالات مرضية كالتي تراها ولا سبق لها ان كشفت على مثل هذا العدد من المرضى اثناء عملها مع والدها. ولسوء حظها، ما ان كادت تنتهي من معاينة الدفعة الأخيرة حتى وصلت حافلة كبيرة مزدحمة بمرضى من منطقة فندا المجاورة. نزلت جسيكا لاستقبالهم محدقة في تلك الوجوه السوداء المحيطة بها تتهامس فيما بينها، وتذكرت قول أحد المحاضرين في كلية الطب عن ان الطبيب قد يصادف أياماً يتمنى فيها لو يملك أكثر من يدين اثنتين. والآن هي في أمس الحاجة الى تحقيق هذه الأمنية؛ فعادت الى عيادتها تحمل اللائحة الجديدة وتنهياً مرة أخرى لمعاودة العمل بينما تولت الآنسة هانسن أمر تنظيم دخول المرضى الجدد. ودعت الممرضة المريض الأخير ودخلت غرفة جسيكا لتجدها وقد أسندت رأسها الى حافة مكتبها تأخذ قسطاً من الراحة.

- مر عليك صباح رهيب يا دكتورة نيل، هل تتصورين كيف كانت الحالة قبل قدومك؟

رفعت جسيكا رأسها ونظرت الى الممرضة مبتسمة:

- أقر بأني تعبة لكني راضية عن ذلك. هذا هو نوع العمل الذي طالما نشدته، النوع الذي يتعبك ويريحك في آن معاً. لو رآني والدي في تلك الحالة لطار صوابه.

- ألم يحبذ والدك اختيارك مهنة الطب؟

- بلى، لكنه لا يوافقني على طريقة ممارستها.

لم يبد على الممرضة انها فهمت، ولم تتكبد جسيكا عناء التفسير بل خلعت سترتها وصففت شعرها بيديها قائلة:

- اعتقد اني سأستغل فترة الغداء لأعود أوليفيا كينغ وطفلها في المزرعة. بعدها سأكون في المستشفى ان احتجت الي.

تطلعت الآنسة هانسن بشفقة الى وجه جسيكا الشاحب وهزت

رأسها معاتبة:

- الاطباء ينصحون مرضاهم بعدم اهمال صحتهم والاهتمام بطعامهم ولكن نادراً ما يعملون هم بهذه النصيحة.

هزت جسيكا كتفيها وغادرت عيادتها تقود السيارة على مهل الى مزرعة آل كينغ، فامامها متسع من الوقت قبل ان يحين موعد رجوعها الى المستشفى. فكرت بفيفيان، فأمرها ما برح يشغل بالها منذ ان أفضت لها بمكنونات صدرها. وخطرت لها فكرة قد تنجح في التخفيف من مشاكل هذه المرأة الطيبة، لكنها قبل ان تمضي قدماً في تنفيذها، ستحاول التقرب منها قدر الامكان، واوليفيا كينغ هي الشخص الوحيد القادر على ذلك.

٥ ـ تعلم انها ستندم غداً على ما تفعله الآن وستكره نفسها كلما فكرت به. لكنها في هذه اللحظة ملكه وملك هذا الاحساس الرائع والكلمات الدافئة التي يهمس بها...

لم يكن في المزرعة عند وصول جسيكا سوى ربة المنزل والخادمة، فتوجهت مباشرة الى الطابق العلوي حيث كانت اوليفيا ترضع طفلها في غرفة النوم.

ـ كيف حال الأم وطفلها اليوم؟ دعيني القي نظرة على الصغير ثم انتظرك في غرفة الجلوس.

استغرقت المعاينة دقائق معدودة طمأنت بعدها الأم وخرجت تنادي الخادمة كي تحضر القهوة. لقد اعجبت باوليفيا منذ زيارتها الأولى للعيادة. وجدت فيها الوجه الآخر لشخصيتها، الوجه الذي اضطرتها الظروف لبتره من حياتها والظهور دائماً بمظهر الطبيبة الجادة والرصينة. تود لو تسترجع بعضاً منه قبل ان يفوت الأوان.

اكثر ما شدها الى اوليفيا، ذكاؤها وسعة اطلاعها، اضافة الى حبها للحياة والمرح. انها مثال المرأة التي لا تترك فرصة الا وتغتنمها لتضيف الى حياتها مزيداً من الهناء والسعادة.

وافت اوليفيا ضيفتها الى غرفة الجلوس مرحبة، وسكبت لنفسها فنجاناً من القهوة.

ـ عادتني فيفيان هذا الصباح واقترحت ان تحمم لوغان. وما ان انهت تحضير ما يلزمها حتى فوجئت بالخادمة وقد سبقتها الى ذلك.

وجدت جسيكا الفرصة سانحة لتعرف المزيد عن فيفيان فقالت متعمدة البساطة:

ـ يبدو انها مولعة بالأطفال الى حد بعيد.

ـ انها تعشق فرانسين، ومن الواضح ان لوغان بدأ يحظى بحبها ايضاً. لم يسبق ان اتت على ذكر هذا الموضوع، لكن برنارد اخبرني انها عرضت نفسها على اكثر من اخصائي مشهور قبل ان تقتنع بأنها عاقر.

ـ وهل فكرت بالتبني؟

ـ لا يمكنني الاجابة على هذا السؤال، لكن فيفيان من الذين يسلمون بالأمر الواقع.

ـ لا يبدو انك مقتنعة بما تقولين.

ـ هذا صحيح، فأنا اعتقد انها تخفي في داخلها رغبة جامحة للحصول على طفل. لكن برنارد ينتمي الى عائلة عريقة ومحافظة سترفض فكرة التبني، وهذا ما جعل فيفيان تصرف النظر عنها متظاهرة بعدم الاكتراث.

سكتت جسيكا لثوان ثم تمتمت:

ـ هكذا اذن.

ـ ماذا يدور في خلدك يا جسيكا؟

تطلعت الى عيني محدثتها الهادئتين مبتسمة:

ـ عندي فكرة جيدة، اذا نجحت...

ـ من الأفضل ان تخبريني عنها.

وضعت الدكتورة نيل فنجان القهوة الفارغ على الطاولة على مهل وكأنها تختار عباراتها:

ـ في دار الايتام في جوهانسبرغ فتاة تعيسة تناهز العاشرة من عمرها، نجت في حادث سيارة قضى فيه والداها. تعرفت اليها حين كانت في المستشفى قيد المعالجة، توطدت علاقتنا بعد ان عرفت ان لا اقارب لها، ووعدتها منذ ايام بأن اجلبها الى هنا لتمضية عطلتها المدرسية معي.

ـ اظن اني بدأت اعي ما ترمين اليه يا جسيكا. ان احبت فيفيان الفتاة فقد تبقيها معها.

ـ ميجان لاي طفلة رائعة، وكل من صادفها احبها. انها تتعلق بالناس بسهولة وتحتاج الى من يهبها حبه وحنانه.

ـ صدقيني يا جسيكا، اتمنى لك النجاح في مسعاك.

ـ هل امضي قدماً في خطتي واجلب ميجان الى هنا لقضاء العطلة؟

فاق حماس اوليفيا حماس محدثتها، فهتفت:

ـ بكل تأكيد، فكلما اسرعنا في المحاولة كلما اسرعنا في معرفة النتيجة.
ـ يسرني ان اناقش هذه القضية معك يا اوليفيا.
ـ هذا يسعدني كثيراً. ولن اطلع احداً على الأمر وخاصة فيفيان، لأنها ان اشتبهت بشيء، ستكون عواقب محاولتنا وخيمة على الجميع.
وقفت جسيكا مودعة:
ـ حسناً، سنبقي الأمر سراً بيننا، الى اللقاء يا عزيزتي.
بعد يومين، تمكنت جسيكا من الاتصال بالمسؤولة عن دار الايتام والحصول على اذن لميجان لتمضية عطلتها المدرسية بمعيتها في لويزفيل، ولم يبق الا ان تتصل بوالدها ليتدبر امر انتقال الطفلة بالقطار من جوهانسبرغ. سيسير كل شيء على احسن ما يرام وستدخل الفرحة الى قلب هذه الفتاة التعيسة، وتنزع الأمل من جديد في دار آل اوبريان.
كانت في عيادتها عندما دخل عليها دان ترافورد ليفاجأ بامارات الفرح تعلو وجهها.
ـ ما هذه البسمة الحلوة التي تزين وجهك؟ هل ستطلعينني على السبب ام هي احد اسرارك الدفينة؟
ظلت على كرسيها خلف مكتبها تحدق به مذهولة كعادتها في كل مرة يفاجئها بزيارته.
ـ نجحت في محاولتي لجلب فتاة يتيمة لتمضية العطلة معي.
ـ هل كانت احدى مرضاك؟
ـ تقريباً.
ـ هذا يثبت صحة كلامي عن تورط الطبيبات عاطفياً مع مرضاهن.
دفعت كرسيها الى الوراء ونهضت محافظة على مسافة كافية بينها وبينه، بعد ان تقدم وجلس الى حافة مكتبها:
ـ انا لا اهتم بحالة مرضاي الجسمية فحسب، بل بحالتهم النفسية ايضاً، ولا يسبب لي اعتراقي بهذا الاهتمام اي خجل.
ـ من الطبيعي ان يصدر هذا الكلام عن امرأة.
ـ لا عجب في ذلك. فأنا امرأة.
اكتشفت انها تسرعت في جوابها، فعيناه الشرهتان بدأتا تتفحصانها بوقاحة نجحت مراراً في بعث الاضطراب بجسمها.

ـ بدأت الاحظ ذلك منذ مدة.
تفوه بعبارته ومضى قبل ان تتمكن من الرد. تركها فريسة احاسيس غريبة مزعجة، فراحت توضب اغراضها في الحقيبة بيدين مرتجفتين قبل ان تودع الممرضة هانسن وتعود الى المنزل.
لم تشعر بالارتياح الا بعد ان اتصلت بوالدها في المساء وحصلت منه على وعد بالاهتمام بميجان لاي، وحجز مقعد لها في اول قطار قادم الى لويزفيل.
ـ سنزورك في عطلة الاسبوع ونناقش الأمر معاً بكل تفاصيله، سنصل ليل الجمعة ونعود صباح الاثنين.
هتفت جسيكا فرحة:
ـ يا له من نبأ رائع يا ابي!
ـ هل يتسع منزلك لنا؟
ـ اجل ففي المنزل غرفة للضيوف.
ـ حسناً، هذا سيريح بال والدتك، فأنت تعلمين كراهيتها للفنادق.
وسكت الوالد وكأنه ينتظر منها ان تقول شيئاً، ولما طال صمتها اردف:
ـ على كل حال، سيكون لنا حديث طويل معك. الى اللقاء.
اعادت جسيكا السماعة الى مكانها ولازمت مقعدها من غير حراك. كلمات ابيها بعثت في نفسها قلقاً واكتئاباً، وستجد صعوبة بالغة في اقناع والديها بانها مرتاحة في عملها هنا، ولكنها لن تعدم وسيلة لتحقيق ذلك.
ستمضي بقية النهار هنا للمرة الأولى منذ وقت طويل، فتحضر غداءها ثم تصعد الى غرفتها لتستلقي وتطلع على المجلات المكدسة قرب سريرها.
لكن ما ان اخرجت قطعة اللحم من الثلاجة حتى دخل دان ترافورد غرفة الجلوس من غير استئذان وتوجه مباشرة الى المطبخ قائلاً بجدية:
ـ اتركي كل شيء واتبعيني، انها حالة طارئة.
اعادت اللحم الى مكانه من غير تردد:
ـ سأجلب حقيبتي.
هتف محافظاً على لهجته الآمرة:
ـ دعيها، فلدي كل ما قد نحتاجه.
اطاعته من غير سؤال واغلقت باب المنزل خلفها. لكنها لم تتمكن من لجم فضولها وقتاً اطول، فما ان جلست قربه في السيارة حتى سألته بقلق:

ـ ما الأمر؟ ماذا حصل؟
ـ ليس مهماً ما حدث بل ماذا سيحدث.
اخافتها عبارته فاستوضحت مجدداً بنبرة متقطعة:
ـ ماذا تقصد بما سيحدث؟
ـ هلا سكت لأتمكن من الاهتداء الى الطريق الصحيح؟
قاد دان السيارة بأقصى سرعة ممكنة، وما ان شارف حدود المدينة حتى انعطف يميناً وسلك طريقاً فرعية تفضي الى منزل قديم قابع على هضبة صغيرة، تحيط به مساحات شاسعة من الغابات.
لقيت جسيكا صعوبة في تحديد موقع المكان بسبب الظلمة، وكل ما تمكنت من ملاحظته كان ملعباً لكرة المضرب وحوضاً للسباحة. بدا واضحاً ان المنزل قد اعيد ترميمه حديثاً، والأنوار المتلألئة في الممر المؤدي الى مدخله لا توحي بقرب وقوع كارثة.
فتح دان الباب الخشبي الكبير من غير ان يقرع الجرس، ووجدت نفسها بعد لحظات في قاعة واسعة تدلت في وسطها ثريا هائلة الحجم انعكست انوارها على البلاط الرخامي.
ـ اهلاً بك في منزلي يا جسيكا.
التفتت اليه بعينين جاحظتين وبقيت صامتة لثوان غير قادرة على تقبل الواقع الجديد. ثم سألته ببرودة لتتأكد من صحة ما سمعته:
ـ اهذا منزلك؟
ـ اجل.
ـ هل بامكاني السؤال عن الحالة الطارئة؟
ـ انك تنظرين اليها، فأنا لم اتمكن من تناول العشاء وحيداً الليلة.
اشتعلت عيناها ببريق غاضب وهتفت بمرارة:
ـ قد خدعتني اذن.
ـ وهل كنت ستلبين الدعوة من تلقاء نفسك؟
ـ كلا بكل تأكيد.
ـ على كل حال، انت هنا الآن.
تمنت لو تصفعه لكن يديها المرتجفتين لم تساعداها:
ـ انت مجنون.

اطلق ضحكة قصيرة معلقاً:
ـ اعتقد ذلك.
ـ ارجعني الى منزلي في الحال.
ـ سأعيدك الى المنزل بعد تناول العشاء.
ـ اذن ساعود سيراً على الأقدام.
اسرع دان الى الباب يمنعها من الوصول الى المفتاح:
ـ المسافة طويلة الى منزلك، عدا عن ان الطريق محفوفة بالخطر بالنسبة الى فتاة وحيدة.
جاهدت في مقاومة نظراته الوقحة المسلطة عليها بجسارة لم تعهدها من قبل:
ـ لا احفل بذلك. لا يحق لك جلبي الى هنا بهذه الوسيلة الخادعة، وان كنت ترفض ايصالي الى منزلي فسأقدم ...
قاطعها بحدة:
ـ جسيكا، هل انت خائفة مني؟
اشاحت بوجهها بعيداً عن نظراته الثاقبة.
ـ لا تكن سخيفاً.
ـ اذن تناولي العشاء معي.
كادت عزيمتها تخور امام جاذبيته الساحرة، لكنها اهملت نداء شعورها رافضة الاستسلام لعاطفتها:
ـ من حقي ان اختار الشخص الذي امضي معه اوقات فراغي، ولم اخترك انت.
ـ لم اتوقع سماع هذا الكلام منك يا جسيكا.
ـ لست بحالة تسمح لي بقول شيء آخر.
رفع وجهها بأحد انامله فارضاً عليها مواجهة عينيه الساخرتين:
ـ لا اطلب منك سوى مشاركتي العشاء، وبعدها سأكون رهن اشارتك لأوصلك الى منزلك ساعة تشائين.
لم يسبق ان اقترب منها الى هذا الحد، فتسارعت خفقات قلبها وشعرت وكأن الأرض تميد تحتها. لكنها تفضل الموت على ان تدعه يدرك حقيقة مشاعرها.

- رفضك مرافقتي الى المنزل لا يترك لي الخيار. اليس كذلك؟

سحب يده بلطف عن وجهها مفسحاً لها في المجال لالتقاط انفاسها، وسار امامها نحو غرفة الجلوس:

- هل تعجبك؟

تفحصت الغرفة بنظرة سريعة غير مكترثة بأثاثها النفيس، ثم اجابت:

- ربما.

امسك بيدها يقودها الى وسط الغرفة وعلق مبتسماً:

- سألتك رأيك في الغرفة لأني اسعى لمعرفة الحقيقة. ما الذي لا يعجبك فيها؟

عاودت النظر الى محتويات الغرفة وأجابت متعمدة السخرية:

- الغرفة بأكملها لا تعجبني، فهي تصلح لتصوير مشهد في احد الأفلام الرخيصة.

- وماذا تدري فتاة رصينة مثلك عن امور كهذه؟

- لست طفلة.

- لا، لست طفلة. من المؤسف ان لا تعجبك الغرفة فأنا اجدها مريحة للغاية. اضواؤها خافتة وموسيقاها ناعمة (وضغط على احد الأزرار فتهادى الى مسمعيها نغم ناعم) اكثر ما يعجبني فيها مقاعدها المريحة جداً.

- مقاعد؟ اية مقاعد؟ اني لا ارى سوى اريكتين، وهما بنظري تصلحان لكل شيء الا للجلوس.

- انك تنبهيني الى امور كانت خافية علي.

- لست بحاجة الى تنبيه احد، فهذه الأمور تدور في خلدك منذ البداية.

التقت عيونهما لثوان احست جسيكا خلالها بارتعاش لذيذ بالرغم من محاولاتها المستمرة لمقاومة جاذبيته، فأردفت بصوت خافت:

- هل دعوتني الى هنا لتغريبي؟

- هل تصدقيني ان نفيت ذلك؟

- كلا.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه:

- اذن انت فتاة حكيمة. وهذا احد اسباب اعجابي بك.

- اراك تعترف بذلك.

- لنقل اني احاول ان اكون لائقاً معك، وما تبقى عائد اليك وحدك.

- اتعني ان لي ملء الخيار في رفض اقتراحاتك؟

سكب دان كوبين من العصير ثم تقدم منها قائلاً:

- قد يصعب عليك تصديق ما سأقوله، لكني اؤكد لك انه لم يسبق أن فرضت نفسي على امرأة بالقوة.

- هل تقول هذا لتشعرني بالأمان؟

- قصدت بعبارتي ان اخفف من تشنجك.

قدم لها كوباً من العصير تناولته منه وجلست على الأريكة مسندة ظهرها الى الوسادات الصغيرة المحيطة بها من كل جانب.

جلس دان قربها من غير ان يرفع نظره عنها لحظة واحدة. لاحظت محاولته اغراءها في كل نظرة رمقها بها وفي كل كلمة قالها. لكن ما يثير هلعها هو احساسها بأنها بدأت تستجيب رويداً رويداً لمحاولاته مأخوذة بسحره وجاذبيته. عليها ان تضع حداً لما يحدث قبل فوات الأوان.

نهضت من مقعدها ووضعت كوب العصير على الطاولة هاتفة:

- هذا مستحيل! لا استطيع البقاء هنا.

- ولم لا؟ بيتر في المستشفى، وهذا يعني ان الليل بأكمله لنا.

- لا يسعني قضاء الليل هنا.

- هل تخشين كلام الناس؟

- لا تدع جهلك لما يقوله الناس عنك في هذه البلدة.

- انا لا ادعي شيئاً، لكن اود ان اذكرك انك جئت الى هنا في سيارتي فلم يرنا احد نصل ولن يرانا احد نرحل. عدا عن ان سيارتك امام منزلك وسيظن من يراها انك نائمة.

بقيت على عنادها بالرغم من علمها انه لا يجدي مع رجل مثل دان:

- ما زلت افضل العودة الى منزلي.

مد ذراعيه يطوق خصرها، فأحست بلهيب يسري في انحاء جسمها. ثم دفعها بنعومة الى الوراء فسقطت على الأريكة وجلس قربها يقدم لها كوب العصير مجدداً:

- اشربي العصير ولا تجزعي. ما زالت السهرة في بدايتها.

تناولت الكوب بيد مرتعشة محاولة الكلام:

- دكتور ترافورد. . .

وضع ذراعه على حافة الأريكة خلفها:

- نادبني دان هذه الليلة.

- انك لا تستسلم بسهولة يا دان.

- فقط عندما اقع على شيء يستحق العناء.

- اتعني وقوعك علي؟

- اجل.

رشفت بعض العصير لتحرر عينيها من اسر نظراته:

- طلبك غير متوافر عندي.

- وما ادراك ما هو طلبي؟

- مضى على وصولي الى لويزفيل اكثر من شهر، وما سمعته وشاهدته يكفي لأعرف مبتغاك.

- انك ولا شك تعنين سيلفيا سامرز.

- اصبت في ظنك ولكن. . . حياتك الشخصية لا تهمني ما دمت مصراً على توريطي فيها.

بحركة مفاجئة انحنى فوقها مطوقاً خصرها بذراعيه يمنعها من الحراك او المقاومة، فأحست بلهاثه الدافىء يغمرها بنعومة ويبعث فيها احاسيس لذيذة وغريبة في آن معاً. لكنه اكتفى بالكلام:

- اهذا رأيك بي؟

ارجعت رأسها الى الخلف تحاول التملص من انامله:

- لم اعتد الاهتمام بالرجل الذي يستغل المرأة من اجل نزوة فحسب.

ابتسم بمكر معلقاً:

- امرأة مثل سيلفيا لا تطالب الرجل بأكثر من ذلك.

- اوافقك الرأي، لكن حتى امثال سيلفيا بحاجة للاستقرار والزواج في حياتهن.

- الزواج! وهل سيوفر لي ما لا املكه الآن؟

- اجل سيوفر لك عائلة. الا تريد اطفالاً يا دان؟

- علي ان اجد الزوجة قبل ان افكر بالأطفال. على كل حال لست مستعداً لأرتبط مع امرأة واحدة طيلة حياتي.

احست بالمرارة من غير ان تدرك السبب، فتناولت كوب العصير تطفىء بمحتواه نار الحسرة المتأججة في داخلها.

نظر اليها قائلاً بتململ:

- كيف انجرفنا الى هذا الحديث الآن؟

- لا ادري ولكن من الأفضل ان ننهي المناقشة.

اقترب منها مرة اخرى، لكن قرعاً خفيفاً على باب الغرفة منعه من تحقيق مأربه. التفتا ليجدا الخادم الأسود بسترته البيضاء واقفاً عند الباب.

- العشاء جاهز يا سيد دان.

- شكراً يا جوناس.

انتقلا الى غرفة الطعام حيث اعد الخادم المائدة بطريقة مثيرة للاعجاب وقام بخدمتهما خلال العشاء. بدا وكأنه اعتاد يومياً القيام باعداد المائدة وخدمة زوار سيده، فأحست جسيكا بشيء من الغيرة وهي تتساءل عن عدد اللواتي جلسن الى هذه المائدة وربما على كرسيها.

قررت ان تصرف نفسها عن التفكير بما يزعجها، فأكملت التهام قطعة اللحم في طبقها بينما بدأ جوناس بتقديم القهوة. نظرت الى دان آخذة المبادرة بالحديث:

- انت جراح ممتاز يا دان، فهل فكرت يوماً بالتخصص في جراحة معينة؟

- جراحة الأعصاب تثير اهتمامي، وحالما اشعر بالملل في عملي هنا، فستكون خطوتي التالية.

- في هذه الحالة عليك بالتحدث الى والدي.

رفع حاجبيه باندهاش وسألها:

- والدك؟

- والدي مختص بجراحة الأعصاب لكنه تقاعد السنة الماضية.

- لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟

- لم ادر ان الموضوع ذو اهمية.

- هل ستسنح لي الفرصة لمقابلة والدك؟

نظرت اليه خلسة لتفاجأ به جاداً للمرة الأولى، فأجابت:

- اجل هذا ممكن.

- حسناً، ساعتبر كلامك بمثابة وعد.

عند عودتها الى غرفة الجلوس، اختار دان احد اشرطة التسجيل من مجموعته الهائلة، وأدار الآلة فانبعث نغم هادىء اضاف الى الغرفة جواً من الشاعرية. ثم استدار نحوها مسلطاً عليها نظراته الساحرة:

- تعالي نرقص يا جسيكا.

لم تقو على الرفض واستسلمت ليديه تنتشلانها عن الأريكة وتضمانها اليه بخفة ورشاقة. لقد رقصت مع العديد من الشبان لكن الرقص مع دان شيء مميز. امتدت ذراعه تطوق ظهرها باعثة فيها شتى انواع الأحاسيس. وبحركة لا شعورية مدت يدها لتستلقي بارتياح على صدره الدافىء. شعرت انها تسبح في الفضاء الواسع بعيداً عن كل ما حولها وتمنت لو تبقى هناك الى ما لا نهاية.

لم تدر كم من الوقت بقيت بين ذراعيه، فالزمن توقف حينما ضمها اليه ولم تعد تكترث بالموسيقى ولا حتى بخطواتها. ترغب فقط بالبقاء اسيرة هذا الطوق من العضلات الى الأبد. لكن انامله عاودت التحرك من جديد حول عنقها بحركات تبعث على الارتياب، فابتعدت عنه غير آبهة بنداء اعماقها.

ابتسم بحنان قائلاً بنبرة عاطفية:

- اني اجد صعوبة بالغة في لجم تصرفاتي معك.

- الا تظن ان الوقت حان لتعيدني الى المنزل؟

- لست جادة فيما تقولين.

لقد فقدت ثقتها بتلك الارادة التي طالما صدته بها، فتمتمت:

- بل انا مصرة.

استعادت عيناه بريق السخرية وقال راضخاً:

- حسناً، لقد وعدتك بأن اعيدك الى المنزل ساعة تشائين. اليس كذلك؟

لم يخرج دان عن صمته خلال عودتها الى منزل جسيكا، فاحتارت كيف تعلل سكوته. اهو غاضب؟ ام انه لم يعد يكترث بها بعد ان يئس من نيل مأربه؟ نساء عديدات ينتظرن اشارة منه ليهبنه ما رفضت هي تقديمه.

ما ان توقفت السيارة امام مسكنها، حتى همت بالترجل قائلة:

- لن ادعوك للدخول يا دان.

لكنه امسكها بكتفها قبل ان تخرج:

- سأدخل على كل حال.

وتبعها الى داخل المنزل وأغلق الباب خلفها.

صاحت بحنق وهي تضيء غرفة الجلوس:

- لقد تماديت بما فيه الكفاية.

رمى المفاتيح على الطاولة مومئاً برأسه:

- بربك يا جسيكا، لماذا تتصرفين هكذا؟

لم تكترث لنظرة التهديد في عينيه وابتعدت عنه متجهة الى المطبخ:

- ساحضر لك فنجاناً من القهوة ومن ثم تعود الى منزلك.

اشعلت النار تحت غلاية القهوة لكنه اسرع الى اطفائها حابساً اياها بين جسمه والفرن الحديدي. فاستدارت تحاول الافلات لكنها لم تفلح ومانت الكلمات عند شفتيها. بدا الفارق بين القامتين كبيراً وأحست بانها امام مارد بمنكبيه العريضين يحجبان الضوء عنها. دب الهلع في نفسها واحتارت كيف تتخلص من مأزق خطير سعت اليه بملء ارادتها. وقبل ان تكتشف ما يدور في خلده رفعها عن الأرض حتى التقت عيناها الجاحظتان بريق عينيه، فراحت تنتفض كالعصفور بين يديه، ويداها هائمتان في الهواء في حركات هستيرية من غير ان تصيب هدفها:

- انزلني على الفور.

- طوقي عنقي بذراعيك.

كانت تعلم انه لن يفعل ما تطلبه منه أو يأبه باعتراضها، وعيناه المسلطتان عليها خير دليل على ذلك. تمنت ان تصفعه لكنها خشيت العاقبة، فصاحت بصوت مضطرب:

- لن افعل ذلك ابداً.

اضحكه اضطرابها فرد بسخرية:

- وزنك خفيف للغاية يا جسيكا وأنا على استعداد للبقاء بهذا الوضع حتى تنفذي ما اطلبه منك.

- انت رجل بغيض يا دان ترافورد.

- وأنت امرأة رائعة عندما تغضبين.

لم يترك لها الخيار، فاضطرت مكرهة لأن تنفذ طلبه.

قالت وقد علا الاحمرار وجهها:

ـ والآن افلتني حالاً.

هز دان رأسه وقال بنبرة حازمة:

ـ يجب ان تعانقيني بطريقة صحيحة اولاً.

كادت ان تيأس من ريائه وقررت مجاراته في جنونه الى النهاية ما دامت هذه الطريقة الوحيدة للتخلص منه. اغمضت عينيها الثائرتين فانتهز الفرصة وعانقها بطريقة ناعمة اثارت اعصابها مشعلة فيها ناراً مستعرة. كان بامكانها ابعاده لكنها لم تفعل، فقد شل فيها كل اثر للمقاومة، فاستسلمت بعد طول عناد.

تراجع دان متمتماً بتهكم:

ـ كانت تجربة ناجحة اليس كذلك؟

توقع ان تثير نبرته الساخرة غضبها من جديد، لكنها بدلاً من ان تثور، مدت يدها الى رأسه تداعب شعره الداكن بأناملها مما شجعه. اثار فيها زوبعة من الأحاسيس الممتعة لم تفطن اليها في السابق. افلتها من غير ان يطلق سراحها من براثن نظراته اللامعة والغريبة. وقبل ان تلتقط انفاسها وجدت نفسها مرة اخرى اسيرة ذراعه الفولاذية، واستسلمت لتلك العاصفة القادمة غير مكترثة. تغلب نداء الشوق على تحذير العقل لها بالتوقف والمقاومة، فلمسات انامله شلت فيها كل قوة. تعلم انها ستندم غداً على ما تفعله الآن وستكره نفسها كلما فكرت به، لكنها في هذه اللحظة ملكه وملك هذا الاحساس الرائع والكلمات الدافئة التي يهمسها في اذنها:

ـ اريدك لي... اريدك الآن، الآن.

اثارت عباراته ريبتها وكأنه سكب ماء بارداً فوق عواطفها الملتهبة فانتفضت مفلتة نفسها من ذراعه، واغمضت عينيها تخفي حياء وألماً لاحا فيهما:

ـ ابهذه البساطة؟

صدته بيديها وأدارت له ظهرها.

ـ انا آسفة يا دان. لست مستعدة لهذا النوع من العلاقة.

وأردفت بعدما استرجعت بعضاً من ثقتها بنفسها:

ـ لن يكون للحب مكان في علاقات كهذه وستكون النتيجة وخيمة علي.

ـ هل انت متأكدة من النتيجة؟

ـ اني اعرف نفسي يا دان.

تقدم منها فتوردت وجنتاها وحاولت الابتعاد، لكنه امسك بخصلات من شعرها وأجبرها على الاستدارة لتواجه عينيه:

ـ لا ادري ما افعل بك يا جسيكا.

ـ الغ اسمي عن لائحة فتوحاتك، وابحث لنفسك عن امرأة اخرى مثل سيلفيا سامرز.

انقلبت نظراته الساخرة الى اخرى تقدح شرراً، تركت آثارها على وجهها شحوباً وارتجافاً.

ـ عمت مساء يا جسيكا.

٦ـ حبها له ضرب من المستحيل. فهو ليس الرجل الذي تنشده. لكن لماذا يؤلمها التفكير بأنه مع امرأة أخرى... الى هذا الحد؟

وصل جوناثان واميليا نيل الى لويزفيل بعد ظهر نهار الجمعة وانتقلا على الفور الى دار آل اوبريان، ملبين دعوة للعشاء بعدما اتفقا مع جسيكا على موافاتهما بعد انتهائها من عملها.

فوجئت الأبنة عند دخولها منزل فيفيان بجو المودة والالفة المخيم على المجتمعين وكأنهم على معرفة سابقة.

بدا والداها مسرورين جداً في التحدث الى مضيفتهما، مأخوذين بسحرها وحسن ضيافتها. ولم يطل الأمر حتى انضم اليهم بيتر، فجلسوا الى مائدة حفلت بكل ما تعلمت فيفيان تحضيره من مأكولات، يتبادلون الأحاديث ويتناقشون في أمور الطب.

ادركت جسيكا خلال السهرة ان والديها باتا مقتنعين تماماً بصواب انتقالها الى لويزفيل، فلم يتطرقا الى الموضوع أبداً.

وعند عودتهم الى المنزل، اعترف الوالدان لجسيكا بأنهما اساءا الظن بلويزفيل بعد ما سمعاه من الدكتور اوبريان وما شاهداه خلال مرورهما فيها.

في الصباح التالي، اصطحب بيتر ضيفه في جولة الى المستشفى تاركين اميليا تستمع الى ابنتها تحدثها عن عملها وطريقة عيشها في لويزفيل.

ـ اني بخير يا أماه، فلا تقلقي علي.

ـ هل تهتمين بأكلك؟

ضحكت الأبنة وقالت مطمئنة:

ـ بدأت اتعلم الطهي، عدا عن ان فيفيان تحيطني برعايتها. كم من مرة عدت فيها متأخرة لأجدها قد حضرت لي العشاء.

ـ انها سيدة رائعة.

ـ الجميع هنا لطفاء معي، وأنا مسرورة بالعمل.

لم تسنح الفرصة لجسيكا للتحدث الى والدها على انفراد حتى بعد ظهر اليوم التالي. جلسا في غرفة الجلوس بينما تمددت اميليا في غرفتها، يحدثها باعجاب عن المستشفى وعن جولته في ارجائها:

ـ اعترف يا جسيكا بأني اعجبت كثيراً بالدكتور اوبريان. لم أعرف شيئاً بعد عن شريكه.

فوجئت جسيكا بعبارة ابيها واحتارت كيف تخفي انفعالها بتلعثم:

ـ دان ترافورد؟ آه، انه... انه طبيب لامع وجراح ماهر، ويبدي اهتماماً بجراحة الاعصاب.

توقف جوناثان عن مراقبة الدخان المتصاعد من غليونه والتفت اليها سائلاً باهتمام:

ـ أصحيح؟ هل ستتسنى لي مقابلته؟

ـ استبعد ذلك، فهو... (لاحظت علامات الخيبة على وجه والدها فاستدركت) هل اتصل به وادعوه لتناول فنجان من الشاي؟

رحب جوناثان باقتراح ابنته هاتفاً:

ـ ولم لا؟

من حسن حظها انها نقلت الهاتف من غرفة الجلوس، فلم ير والدها ارتجاف يدها وهي تدير قرص الهاتف في غرفة نومها. تهادى الى مسمعها صوت انثوي هادىء النبرات، فأحست بقشعريرة تسري في جسمها وسألت:

ـ أهذا منزل الدكتور ترافورد؟

ـ أجل، لكنه في اجازة عطلة الأسبوع. بامكانك الاتصال بشريكه الدكتور اوبريان.

قطع الخط قبل ان تسنح الفرصة لجسيكا للاستيضاح، فاعادت السماعة الى مكانها وعادت ادراجها الى غرفة الجلوس بعينين تائهتين يعتصرهما الألم. بادرها جوناثان بالسؤال:

ـ هل سيأتي؟

تهادت على مقعدها شاردة الذهن وتمتمت:

- لا اعتقد ذلك، فهو... مرتبط بموعد آخر.

علق الأب بخيبة:

- أمر مؤسف (وحدج ابنته بنظرة ثاقبة متابعاً) أراك شاحبة الوجه يا جسيكا. هل تشعرين بشيء؟

تعمدت الابتسام قائلة:

- مجرد ألم خفيف في المعدة. سأهيء الشاي قبل ان تستيقظ أمي.

ما ان انفردت بنفسها في المطبخ حتى راحت تؤنب ذاتها على بلاهتها وتهورها في علاقتها مع دان. كيف تركت نفسها تتورط مع شخص عرفت غايته منها منذ البداية؟ لم تعد تدرك حقيقة شعورها نحوه. هل تحبه ام لا؟ واقتنعت في نهاية الأمر بأن حبها له ضرب من المستحيل، فهو ليس الرجل الذي تنشده... لكن لماذا التفكير بأنه مع امرأة أخرى يؤلمها الى هذا الحد؟ أهي الغيرة التي تحز في نفسها أم اشمئزازها من تصرفاته؟

انقضت عطلة الأسبوع بسرعة، ولم تلتق جسيكا الدكتور ترافورد الا مساء الاثنين في العيادة، حيث اضطرت لانتظار بيتر الى حين عودته من المستشفى للتباحث في حالة أحد المرضى. كانا يتكلمان عن والديها حين دخل عليهما دان باناقته المعهودة.

بادره بيتر وهو يهم بالخروج:

- من المؤسف انك لم تقابل والدي جسيكا في عطلة الأسبوع، فجونانان نيل واحد من أشهر الاطباء الذين صادفتهم. كنت ولا شك ستسر بمعلوماته عن جراحة الاعصاب التي تعطيها الكثير من اهتمامك.

بقي دان صامتاً الى ان أغلق بيتر الباب خلفه، فسأل ببرودة:

- لماذا لم تعلميني بقدوم والديك؟

نهضت جسيكا عن مقعدها واضعة يديها في جيبتي سترتها مخافة ان يلاحظ ارتجافهما وسارت الى النافذة تنظر الى الخارج:

- اتصلت بك بعد ظهر السبت لادعوك لتناول الشاي لكني اكتشفت انك كنت مشغولاً جداً.

تقدم منها مجيباً بنبرة هادئة لا أثر فيها للاعتذار أو للأسف:

- آه، سيلفيا. أهي التي تلقت المخابرة؟

- اعتقد ذلك، ما لم تكن قد امضيت عطلتك مع أكثر من امرأة.

- كلمة منك يا جسيكا وتصبح سيلفيا سامرز صفحة من الماضي.

استدارت تواجهه قائلة بسخرية:

- اتساءل متى ستعاود قول هذه العبارة الى فتاة أخرى؟

- جسيكا! لم أتمنّ امرأة قبلك كم اتمناك انت.

- يفترض ان اشعر بالاطراء لكني أحس العكس تماماً. وان اردت معرفة حقيقة شعوري الآن فيمكنني اختصارها بكلمة حقارة.

شحب وجهه فجأة وامسك بمرفقيها يهزها بعنف:

- يا الهي. اراهنك على انك كاذبة في حقيقة شعورك، فانت لم تشعري بالحقارة تلك الليلة. ما أحسست به ساعتها كان عاطفة جامحة لا تخفى على احد. لا تحاولي التلاعب معي يا جسيكا نيل والا اثبت لك الآن وفي عيادتك كم انت كاذبة.

- انك... انك تؤلمني.

- احمدي ربك على ان يدي ليستا حول عنقك لأني ما فكرت يوماً بازهاق روح انسان كما افكر الآن.

افلتها، فتراجعت الى النافذة تدفن وجهها في راحتيها بينما غادر الغرفة، مغلقاً الباب خلفه بقوة جعلتها تهتز في مكانها. لقد خرج من حياتها مخلفاً فيها جرحاً يصعب على الأيام مداواته.

كان شعورها في محله، فخلال الأسابيع التي تلت، عاملها دان كأي شخص غريب. افتقدت ملاحظاته الجارحة لها، افتقدت هزءه المعتاد. لم تعد تلاحظ ابتسامته الساخرة بل وجه عابس يلعب دور رب العمل. انها تحبه كما لم تحب انساناً في حياتها. وتشعر بهذا الحب يضج في اعماقها ويهدر في عروقها. لكنها تأخرت في الاعتراف بهذا المارد السجين في فؤادها، ولم يعد بامكانها الافصاح عن حبها لانسان لا قيمة للحب عنده.

كانت جسيكا عائدة من زيارة احد مرضاها في احدى المزارع المجاورة، فعرجت على منزل اوليفيا للاطمئنان عليها وعلى الطفل، فقد شعرت اليوم بحاجة الى محادثة شخص يفهمها ويساعدها، فلم تجد أفضل من هذه الصديقة الوفية التي طالما اعجبت بآرائها وعملت بنصائحها.

جلستا على الشرفة تتناولان الشاي بينما غط لوغان في نوم عميق في سريره الصغير بالقرب من والدته. لم تخل لقاءاتهما في المدة الأخيرة من

الحديث عن الطفلة القادمة الى لويزفيل، فسألت اوليفيا ضيفتها بحماس:

- متى تتوقعين وصول ميجان؟

- ستصل غداً صباحاً في أول قطار قادم من جوهانسبرغ.

- هل اخبرت فيفيان بذلك؟

- اكتفيت باعلامها بقدوم الطفلة لتمضية بعض الوقت معي، وسألتها السماح لها باللعب في الحديقة خلال عملي في العيادة.

- ماذا كان جوابها؟

- تعرفين فيفيان. لم تبد أي اعتراض بل رحبت بالفكرة واعدة باحاطة الطفلة بعنايتها طوال النهار اذا اضطررت للتغيب عن الغداء.

- ارجو ان تنجح الخطة.

- هذا ما اتمناه أيضاً.

كانت تعلم انها عملية رهان لا اكثر، من غير ضمانات اكيدة لنجاحها.

أمضت جسيكا ليلتها تصارع الارق، تتساءل ان كان تصرفها صائباً في تدبر اللقاء بين فيفيان وميجان؟ فقد لا تتفقان معاً وتضيع فيفيان على نفسها وعلى الطفلة فرصة نادرة.

أو قد تسير الأمور على ما يرام وتتحابان، ولكن هل يبقى دورها خافياً على الاثنتين فتتفادى احراجاً هي بغنى عنه؟

اقتنعت، بعد ان غلب الكرى اجفانها، بالكف عن تساؤلاتها، فالعملية كلها مجرد تجربة وان فشلت فلن تلحق الاذى بأحد.

استيقظت قبيل الفجر على غير عادة، قارتدت ثيابها على عجل وتوجهت الى محطة القطار تنتظر وصول ميجان.

اجاب موظف المحطة على تساؤلاتها القلقة وهي تذرع الرصيف بخطى سريعة:

- سيصل القطار بين دقيقة واخرى يا دكتورة نيل.

ولم تمض دقائق حتى شاهدت دخان القطار وهو يقترب من المحطة. وقبل ان يشارف على التوقف، أطلت الطفلة برأسها من احدى النوافذ تلوح بيدها لجسيكا هاتفة:

- دكتورة جسيكا، دكتورة جسيكا.

وما هي الا لحظات حتى كانت ميجان ترتمي في حضن جسيكا بقوة كادت ان توقعها، لكنها نجحت في استعادة توازنها وطوقت ميجان بذراعيها.

- يسرني ان اراك ثانية يا ميجان. كيف حالك يا صغيرتي؟

- اشتقت اليك يا دكتورة.

- وأنا أيضاً (وحملت الحقيبة الصغيرة متابعة) لنذهب الآن، ستتكلم في الطريق فأنا متشوقة لأريك منزلي.

لم تكف ميجان عن الكلام طوال الطريق، فاخبرت جسيكا كيف رافقها جوناثان نيل من الميتم في سيارته الفخمة، محملة بقطع الحلوى التي ارسلتها اميليا لها، وحكت لها عن الرحلة الممتعة في القطار من جوهانسبرغ الى هنا. اصغت اليها جسيكا بحنان من غير ان تقاطعها. لم تعهدها بهذا الحماس الى الكلام والضحك، فقد عرفتها كئيبة لا يعرف وجهها الابتسامة.

انهمكت جسيكا فور وصولها الى المنزل بتحضير الفطور، بينما راحت ميجان تتحرى المنزل غرفة بعد الاخرى.

لاحظت جسيكا عند جلوسها الى المائدة شهية الطفلة الهائلة الى الأكل فسألتها بتودد:

- ألم تأكلي شيئاً في القطار؟

- بلى، لكني لم اذق البيض منذ فترة طويلة، فالمسؤولون عن الميتم لا يقدمونه الا في المناسبات الخاصة.

دفعت بطبق البيض أمام الطفلة من غير ان تسألها عن ماهية المناسبات الخاصة، وراحت تراقبها تلتهم البيضة تلو الاخرى بشهية غير معقولة.

ما ان انهت جسيكا غسل الصحون، حتى سمعت طرقاً على باب المنزل وصوت فيفيان سائلة:

- هل بامكاني الدخول؟

- بالطبع يا فيفيان، نحن في المطبخ.

وضعت الزائرة طبقاً من الحلوى على الطاولة قائلة:

- حضرت بعض الحلوى مساء البارحة (واردفت تنظر الى ميجان) فقد تودين تناولها مع الشاي.

- شكراً يا فيفيان (وربتت على كتف الطفلة متابعة) ميجان، انها السيدة اوبريان وزوجها طبيب ايضاً.

مدت الصغيرة يدها مصافحة:

- مرحباً يا سيدة اوبريان.

امسكت فيفيان بيد ميجان بحرارة وقالت مبتسمة:

- يسرني التعرف عليك يا ميجان وارجوك نادديني العمة فيفيان (والتفتت نحو جسيكا تسألها) هل لديك عمل بعد ظهر اليوم؟

تنهدت جسيكا عجبية:

- أجل يا فيفيان.

- سأزور اوليفيا اليوم وبامكاني اخذ ميجان معي لتتعرف على فرانسين. لا شك في انها ستجد سلوى في المزرعة.

سألت الطفلة بحماس:

- هل تملكين مزرعة يا عمة فيفيان؟

- انها مزرعة أخي، ولديه ابنة تدعى فرانسين تكبرك بثلاث سنوات لكني متأكدة من انها ستسر بلقائك. ستتجولان في المزرعة وتمضيان وقتاً ممتعاً. هل توذين مرافقتي؟

رفعت ميجان عينيها الزرقاوين نحو جسيكا تسألها بتهذيب:

- هل استطيع الذهاب يا دكتورة جسيكا؟

- طبعاً يا حلوتي.

- حسناً، سأمر لاصطحبك بعد الغداء مباشرة.

تنفست جسيكا الصعداء بعد خروج فيفيان، كانت قلقة للغاية من نتيجة محادثة ميجان مع جارتها، فالمرحلة الأكثر صعوبة تكمن عند التعارف.

راقبت الطفلة فيفيان تعود ادراجها في الممر الحجري وسط الحديقة، وقالت:

- انها سيدة لطيفة.

- اجل انها لطيفة للغاية. تعالي نرتب اغراضك.

افرغت جسيكا حقيبة ميجان الصغيرة من محتوياتها البسيطة، وراحت تستعرض الملابس القليلة الموضوعة فيها بغير ترتيب. انها كل ما تملكه

ميجان في هذه الدنيا، اضافة الى فرشاة اسنان واخرى للشعر ومنشفة.

- أظن اننا بحاجة لساعتين من التسوق. انت بحاجة لفستانين جديدة وبعض القمصان والسراويل لترتديها اثناء اللعب.

فتحت الطفلة فاهاً غير مصدقة ما تسمع:

- هل ستبتاعين لي ثياباً جديدة؟

- أجل، فلنقفل باب المنزل ونبدأ جولتنا على المحلات.

امضتا وقتاً ممتعاً في التجول بين أسواق لويزفيل، ولم تتركا محلاً الا ودخلتاه أو توقفتا امام واجهاته، تستعرضان الثياب وتتفرجان على آخر ما ابتكرته مقصات الخياطين وأذواق المصممين.

عثرتا في نهاية المطاف على محل لألبسة الاطفال لتخرجا بعد قليل محملتين بالاكياس والعلب، حملت ميجان قسماً منها هاتفة:

- قضينا وقتاً ممتعاً، أليس كذلك؟

- لديك الآن ما يكفيك، هل نسينا شيئاً آخر؟

- ابداً. لم احصل على هذه الكمية من الهدايا منذ وقت طويل. شكراً يا دكتورة جسيكا.

علت قحة مصطنعة خلفها مباشرة، فاستدارت جسيكا لتجد نفسها وجهاً لوجه مع دان ترافورد يلقي التحية:

- صباح الخير.

لو لم تكن تعلم انه مستحيل طبياً، لاقسمت على ان قلبها قد انتقل من مكانه من شدة خفقانه.

- صباح الخير يا دكتور.

قدم نفسه الى ميجان مبتسماً:

- أنا دان ترافورد. ما اسمك؟

حدجته الصغيرة بنظرة خجولة واجابت:

- ميجان لاي. هل انت طبيب أيضاً؟

- نعم، هل يزعجك ذلك؟

- طبعاً لا (والتفتت نحو جسيكا قبل ان تعاود السؤال) هل انت صديق الدكتورة جسيكا؟

لاحظ دان ارتباك جسيكا وتورد وجنتيها، فاجاب غامزاً بعينيه لميجان:

- لا تهتمي لتعابير وجه جسيكا. انها تحبني لكنها تريد ابقاء الأمر سراً (وتعمد تغيير الموضوع مثيراً دهشة جسيكا) هل ترغبين بتناول البوظة؟

وافقت ميجان بسرور:

- اجل.

ساعدهما في حمل الاغراض وساروا معاً نحو كافتيريا قريبة.

- يبدو انكما اشتريتما اغراضاً كثيرة اليوم.

اجابت ميجان باعتزاز:

- اشترت لي الدكتورة جسيكا مجموعة كبيرة من الثياب.

رمق جسيكا الصامتة بنظرة سافرة وهم يدخلون القاعة المبردة:

- لا عجب في ذلك، فهي صاحبة ذوق رفيع.

هتفت الصغيرة مشيرة باصبعها الى احدى الزوايا:

- هناك طاولة شاغرة.

- اسرعي اليها يا ميجان (وتطلع الى جسيكا مردفاً) تفضلي يا دكتورة نيل.

تقدمت جسيكا بصمت وما ان جلسوا الى الطاولة حتى سألها دان بتهكم:

- ماذا تطلبين يا جسيكا، بوظة مثل ميجان؟

تعلم انه يسعى لاثارة غيظها فحافظت على هدوئها واجابت:

- سأتناول فنجاناً من الشاي. شكراً.

نادى دان الخادم باشارة من يده وطلب:

- نريد صحناً كبيراً من البوظة للسيدة الصغيرة وفنجانين من الشاي. شكراً.

ولما ابتعد الخادم نظر الى ميجان مردفاً:

- هل ستمضين اجازتك مع الدكتورة جسيكا؟

- أجل، فقد سبق للدكتورة ان وعدتني باحضاري الى هنا لتمضية العطلة، وكعادتها فقد وفت بوعدها لي.

- عظيم! انه وعد يستحق الوفاء حقاً.

- هل انت طبيب ناجح مثل الدكتورة جسيكا؟

توردت وجنتا جسيكا من جديد وهي تستمع بانزعاج الى الحوار

الدائر امامها.

- اتمنى ذلك. ما رأيك يا جسيكا؟

ابتسمت مجيبة بدهاء:

- وهل لاحد ان يتناقش في مقدرة جهاز كومبيوتر على تقديم معلومات صحيحة؟

جهلها خلفيات الحديث، لم يسمح لميجان بان تدرك حقيقة ما قصدته جسيكا في كلامها. لكنها لاحظت نبرة العداء الواضحة في كلماتها، فنظرت بذهول الى الاثنين تحاول اكتشاف حقيقة ما يجري.

لم تغب حركتها عن انتباه دان، فبادر الى ايضاح الأمر لها:

- ما عنته الدكتور جسيكا هو اني طبيب لامع. ان لم أقل أفضل منها.

ونظر الى غريمته بتحدّ مردفاً:

- هذا ما عنيته في كلامك. أليس كذلك؟

ترددت جسيكا في الاجابة، لكنها ما ان لاحظت نظرات ميجان الحائرة وانتظارها للرد حتى تنهدت مبتسمة رغماً عنها:

- وهل يمكن ان أعني غير ذلك؟

لم يشكرها على جوابها بل اكتفى بالابتسام وهو يتناول اقداح الشاي من الخادم. فوجئت جسيكا خلال جلستهم بتعلق دان بالاطفال. حتى ميجان ارتاحت له وتخلصت من الحياء الذي قيد حركاتها في لقائها الأخيرين. بامكانه ان يكون لطيفاً حينما يشاء، لكن لطافته مع ميجان تختلف تماماً عن اللطافة التي أبداها نحوها في الماضي. لم تتصور ابداً ان شخصاً كدان ترافورد يبدي اهتماماً بالاطفال الا في ما يتعلق بمهنته. وتساءلت ان كانت قد تسرعت في الحكم عليه من خلال ما سمعته من أقاويل واخبار؟ لكن الوقائع كلها ضده، وعلاقته بسيلفيا سامرز تمنعها من مراجعة حساباتها، وطرد الاوهام من مخيلتها.

رافقهما دان الى حيث اوقفت جسيكا السيارة وتقدم من الصغيرة قائلاً بحنان صادق:

- سررت بمعرفتك يا ميجان.

- شكراً يا دكتور دان على البوظة.

وضعت جسيكا الاغراض في السيارة، واجلست ميجان في المقعد

الامامي ثم تقدمت من دان مخاطبة:

- اشكرك على تصرفك اللطيف مع ميجان.

- بامكاني ان أكون أكثر لطافة لو حاولت أن تكتشفي ذلك.

• احتارت كيف تفسر شعورها نحوه في هذه اللحظة ونظرت اليه قائلة بصوت عال:

- لن نشغلك اكثر. شكراً على الدعوة.

انحنى امامها قائلاً بسخريته المعهودة:

- هذا من دواعي سروري.

ما ان ابتعدت بسيارتها مسافة قصيرة حتى نظرت بالمرآة لتجده واقفاً حيث تركاه وما لبث ان لوح لها بيده مودعاً وكأنه أحس بنظراتها، فتوردت وجنتاها وضاعفت من سرعة السيارة كي تتخلص من تأثيره عليها.

قالت ميجان وهما تهمان بدخول المنزل حاملتين العلب والاكياس:

- ألم يعجبك الدكتور ترافورد كما اعجبني؟

- بلى، أظن ذلك.

سألتها الطفلة بفضول:

- اذن لماذا بدوت غاضبة عند بداية حديثنا معه؟

- لم أكن غاضبة بل فوجئت بقدومه.

لم تشأ جسيكا الاسترسال في هذا الاستجواب المحرج، فطلبت من الصغيرة ان تبادر الى ترتيب حاجياتها الجديدة في الخزانة الخشبية الصغيرة في غرفتها.

وقفت جسيكا تراقب فيفيان والصغيرة تبتعدان في السيارة في طريقهما الى مزرعة آل كينغ. كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن، ومن المؤكد ان خطتها ستنجح كما توقعت لها.

مضى الوقت بطيئاً بعد الظهر، واضطرت جسيكا لمغادرة المنزل مرة واحدة حينما استدعيت على عجل للكشف على احد مرضاها في الجوار. قضت معظم وقتها في التفكير بما يجري الآن في المزرعة، تنتظر بقلق عودة ميجان. رن الهاتف في غرفة الجلوس، فرفعت السماعة لتسمع صوت اوليفيا بوضوح:

- جسيكا؟ لقد غادرنا المزرعة الآن، وأظنك ترغبين بمعرفة كيف

تصرفت فيفيان. اطمئني يا عزيزتي، بدت أماً حقيقية. وفرانسين أيضاً أحبت الصغيرة. اعتقد ان خطتك قد نجحت.

- هذا ما تمنيته منذ البداية، فميجان طفلة لطيفة.

- انها اكثر من لطيفة، واذا لم تقرر فيفيان شيئاً حيالها فأنا على استعداد لتبنّيها.

- انت رقيقة القلب يا اوليفيا.

- انت تفوقين الجميع رقة ولطافة. سأراك لاحقاً.

انهمكت جسيكا بالعمل في الأيام التالية، فبقيت ميجان بمعية السيدة اوبريان طوال فترة غيابها عن المنزل. حتى ان فيفيان أصرت على ان تنام الصغيرة معها عندما تضطر جسيكا للعمل ليلاً. فمانعت جسيكا في بادىء الامر حتى لا تثير شكوك فيفيان لكنها وافقت في النهاية امام حماس ميجان، وتعلقها الشديد بالدكتور اوبريان وزوجته.

بعد مرور أسبوع على وجود ميجان في لويزفيل، توجهت جسيكا برفقة دان الى مستوصف خارج المدينة، دأب على زيارته شهرياً. وفي الطريق خارج لويزفيل اخبرها دان باقتضاب عن المستوصف وعن أهل القرية المحيطة به.

- الحالات المرضية كثيرة هناك بالرغم من الطقس الجميل والهواء المنعش النقي.

كان المستوصف يعج بالمرضى، فباشر دان عمله بالاهتمام بالرجال منهم، بينما تولت جسيكا الكشف على النساء والاطفال. بدت في قمة السعادة وهي تزور للمرة الاولى مستوصفاً، وبقيت في عملها حتى ما بعد الظهر عندما غادرا القرية عائدين الى لويزفيل، سالكين هذه المرة الطريق الزراعية بين اشجار الصنوبر وغابات القصب. تمددت جسيكا منهوكة في مقعدها لكن فرحة خوضها تجربة جديدة في عملها. بعد دقائق، وصلا الى الطريق الرئيسية المارة في سفح الجبل فسلكا درباً شديد الانحدار تتخلله منعطفات قاسية.

وعند احد المنعطفات فوجىء دان بجمهرة من الناس متحلقين حول شاحنة لنقل الماشية يتراكضون في ذعر وفوضى.

فاضطر الى الضغط على مكابحه بكل ما أوتي من قوة، وأوقف السيارة

الى جانب الطريق وترجل من السيارة هاتفاً:

- جسيكا استيقظي. اظنه حادث اصطدام.

استقرت الشاحنة عند حافة المنحدر بعدما حطمت أوتاد الأمان المنصوبة على جانبي الطريق. مقدمتها تتأرجح في ذلك الفراغ الرهيب، بينما الدواليب الخلفية ما زالت عالقة بأعجوبة بعدد من الاوتاد وبعض الحجارة.

صاح رجل من بين الفضوليين:

- أنا سعيد برؤيتك يا دكتور ترافورد، هذا الرجل بحاجة لمساعدة (واشار بيده الى رجل جالس في الجانب الآخر للطريق واضعاً يديه فوق رأسه ثم اردف) لقد استطاع ان يقفز من الشاحنة قبل ارتطامها، اما السائق فما زال في مقصورة القيادة ولا ندري أحي هو ام لا.

اصدر دان اوامره بسرعة:

- اتجه فوراً الى المستوصف القريب واخبرهم بما حدث، واطلب منهم ان يجلبوا رافعة او اي شيء آخر لسحب هذه الشاحنة. بعدها، اتصل بالمستشفى في لويزفيل ليرسلوا لنا سيارة اسعاف حالاً.

- سأذهب بأقصى سرعة.

توجهت جسيكا الى حيث جلس المصاب حاملة حقيبتها الطبية وباشرت بالاسعافات الأولية.

ثم استدارت نحو دان وهو يراقب عملها قائلة:

- لقد اصيب برضوض مختلفة ويتمزق في عضل يده، وحالته لا تدعو للقلق. ماذا بشأن الرجل في الشاحنة؟

- ليتني أعلم مدى اصابته. فنحن عاجزان عن القيام بشيء قبل سحب الشاحنة.

فكت جسيكا المنديل من حول عنقها وتناولت من حقيبتها قطعاً من القطن لفتها بالمنديل ثم احكمت ربطه وقالت بهدوء:

- لا أظن ان الوضع يتحمل الانتظار.

صاح دان بحدة وهو يراقبها تربط المنديل حول خصرها:

- ماذا ستفعلين؟

- سأتسلق سطح الشاحنة في محاولة للوصول الى مقصورة القيادة

(وأردفت بجدية بالغة) دان، يجب ان أصل الى السائق قبل فوات الأوان.

- هل جننت؟ قد تنزلق هذه الشاحنة في أية لحظة.

- على احدنا ان يصل اليه يا دان. سأحاول أنا أولاً.

صاح مزمجراً من شدة غضبه:

- علي اللعنة ان تركتك تقومين بهذا العمل المجنون.

لم يؤثر صياحه فيها وبقيت على عنادها:

- بحق السماء يا دان لا تؤخرني. ان لم يكن قد مات هذا المسكين فانه ولا شك يحتضر.

- لن تخاطري بحياتك يا جسيكا.

- أفضل ان اخاطر بها لانقاذ حياة انسان، بدلاً من أن اقف مكتوفة اليدين.

تدخل أحد الرجال، كان يسترق السمع اليهما، مقاطعاً:

- لدي حبل في السيارة نستطيع ان نربط به مؤخرة الشاحنة بجذع احدى الاشجار في الجانب الآخر من الطريق. بعضنا يتوزع على الطريق لتحذير السيارات القادمة، والبعض الآخر يقوم بملء صندوق الشاحنة بعدد من الاحجار لتتوازن مع ثقل السيدة.

نظر دان الى الرجل شزراً وهتف:

- اسمع يا هذا...

قاطعته جسيكا بسرعة:

- اعجبني اقتراحك ولكن اسرع بالتنفيذ.

بادر الرجل فوراً الى توزيع المهام على بقية الرجال. ثم اومأ الى جسيكا للصعود الى الشاحنة وما ان همت بذلك حتى استوقفها دان قائلاً:

- أتدركين خطورة ما تفعلين؟

- أجل أدرك ذلك.

- انت تخاطرين بحياتك لأجل شخص قد يكون ميتاً.

- أعلم هذا لكن علي ان اتأكد. هذه الشاحنة تتأرجح بين الموت والحياة ولن تتحمل ثقل وزنك.

- هذا صحيح، انما...

- هلا ساعدتني، فالوقت ليس في صالحنا.

- أرجوك، احترسي!

دفعها من الوراء برفق حتى طالت يدها الزاوية الحديدية للصندوق، فتأرجحت الشاحنة تحت ثقلها محدثة صوتاً مخيفاً دفع دان الى الصراخ لجلب المزيد من الأحجار لاعادة التوازن.

مرت الثواني ثقيلة احسها دان دهوراً، راحت جسيكا خلالها تسير على مهل وبحذر في الصندوق الضخم باتجاه مقصورة القيادة. العرق يتصبب منها غزيراً، وشعرت بخوف لم تحسه من قبل. لكنها لن تتراجع ابداً عن محاولة الوصول الى السائق، ولو سيكلفها ذلك حياتها. لم تأبه برائحة رذاذ الماشية المنبعثة من زوايا الشاحنة فقد كانت مشغولة بقطع تلك المسافة القصيرة والخطيرة في آن معاً. أمتار قليلة تفصلها عن السقوط الى قعر الوادي السحيق.

وصلت بعد جهد الى مكان السائق حيث المرحلة الاصعب في محاولتها الخطيرة. فتسلقت سور الصندوق ووقفت على حافته لتجد نفسها في الهواء تنظر الى الهاوية، ودواليب الشاحنة الأمامية ما زالت في دورانها محدثة صوتاً رهيباً.

احست بدوار مفاجيء وبجفاف شديد في حلقها، فالمناطق المرتفعة تشكل احدى نقاط ضعفها.

اما الآن فلا مجال للتراجع فالأمر يتعلق بحياة انسان، فاحكمت قبضتها على حديدة ناتئة في مقدمة صندوق الشاحنة واضعة رجليها باضطراب عند النافذة ومتجنبة النظر الى الأسفل. ثم دفعت نفسها ببطء الى الأمام تحاول قدر الامكان الاحتفاظ بتوازنها وضغطت على حلقة الباب حتى فتحته، فدخلت مقصورة السائق واتكأت بهدوء قرب الرجل المغمى عليه خلف المقود.

اغلقت جسيكا باب الشاحنة علّ ذلك يزيدها شعوراً بالامان، واستدارت ناحية الرجل تتحقق من اصابته. لاحظت جرحاً بالغاً في صدغه ينزف بغزارة، فمدت يديها تتفحصه برفق بحثاً عن جروح اخرى.

سمعت دان يناديها باعلى صوته:

- جسيكا... جسيكا؟

صاحت من الداخل مجيبة:

- اني بقرب السائق وهو ما يزال حياً، حتى الآن على الأقل.

خلعت منديلها الحريري الملفوف حول عنقها وربطت به رأس المصاب لتمنع سيلان الدم.

مرت الدقائق بطيئة، لكنها لم تعد تكترث للوقت او تهتم للخطر المحدق بها. انصب اهتمامها على اسعاف المصاب شاكرة ربها على انه فقد وعيه كي لا يشعر بالألم الجرح. علا صوت دان من جديد:

- ابقي مكانك، فسيارة المستوصف في طريقها الى هنا.

ولم تمضِ دقائق حتى سمعت جسيكا منبه السيارة مدوياً بالقرب من الشاحنة وصراخ دان:

- اسرعوا بربكم، فالشاحنة تكاد تهوي.

تنفست جسيكا الصعداء، فالنجدة وصلت وعما قليل ستخرج المصاب من هنا ويتم نقله الى المستشفى.

- الزمي مكانك يا جسيكا، سيقومون بسحب الشاحنة نحو الطريق ولن يكون الأمر سهلاً.

امسكت بطرف المقعد، وثبتت رجليها في أرض الشاحنة ملقية بثقلها فوق جسم المريض وهتفت بنبرة وجلة:

- اني مستعدة.

اهتزت الشاحنة لثوان بدأت بعدها في التراجع نحو الطريق، وعاد الخوف يدب في اوصالها، فاغمضت عينيها حتى لا ترى ما يحدث. اقل خطأ وتنتهي الشاحنة في قعر الوادي.

فجأة توقفت الحركة وخيم هدوء غامض على المكان، فتحت جسيكا عينيها لتجد نفسها محاطة برجال الانقاذ وقد اصبحت الشاحنة في وسط الطريق. سارع دان الى فتح الباب ليطمئن عليها:

- جسيكا؟

في صوته حنان لم تعهده من قبل، ووجهه الشاحب يعكس اضطرابه وقلقه. قميصه الأبيض تلطخ بالبقع السوداء، وسرواله الرمادي يعلوه الغبار. مرر انامله المرتجفة على شعره بانفعال، واوشكت ان تمسك بتلك الأنامل الواجفة وتحضنها براحتيها لتطمئنها، لكن الوقت لا يسمح بذلك.

- عليك ان تساعدني يا دان، نجحت في وقف النزيف لكنه اصيب

بالاغماء ونبضه ضعيف.

احاطت ذراعاه بخاصرتها يساعدها على الترجل من الشاحنة، واصدر تعليماته الى رجال الاسعاف بنقل المريض فوراً الى المستشفى.

تناولت حقيبتها تلحق بالمسعفين:

- سأرافق المصاب الى السيارة.

- سألحق بك الى المستشفى.

صعدت الى جانب المصاب وقبل ان يقفل رجل الاسعاف الباب، نظرت الى دان الواقف الى جانب سيارته مبتسماً، ولوحت له بيدها.

٧ـ لم تشعر بهذا القدر من الفرح والارتياح منذ أمد بعيد. انه تحدّيها الثاني لدان ترافورد ولكنه ما زال متفوقاً عليها بنقاط كثيرة...

لم يكن الوقت في صالح جسيكا، فالرجل الممدد في غرفة العمليات مصاب بنزيف داخلي، والممرضة المساعدة تشير الى ان نبضه يضعف بصورة مطردة. ما تحتاجه هو خمس دقائق اخرى قد تنقذ حياة انسان وتنشله من براثن الموت.

حتى دان الواقف بقربها لم يستطع ان يفعل شيئاً، فتفادى الاثنان النظر الى بعضهما البعض وحتى التكلم منهمكين في محاولة يائسة لانقاذ المصاب. ودأبت على الالتفات بين الحين والآخر الى جهاز التنفس يخف تدريجياً منذراً بوقوع الكارثة. يداها المغطتان بقفازين ملوثين بالدماء، لم تتوقفا عن العمل لثانية واحدة تحاول في احداهما ابقاء مجرى الدم مفتوحاً بين الاعصاب والقلب، وفي الاخرى معالجة التمزق الذي احدثه تحطم الاضلاع من جراء السقطة. لكن الوقت لا يرحم تمضي ثوانيه بسرعة مقربة المصاب من حتفه.

رفعت الممرضة كمامتها الملطخة بالدماء وهمست بيأس وخيبة:

- لقد مات يا دكتورة نيل.

التفتت جسيكا بهلع الى الشاشة السوداء المعلقة قربها، تطلق صوتاً رتيباً متواصلاً معلنة توقف قلب المريض عن الخفقان. لقد خذلها الوقت فلم يمهلها دقائق خمساً لينتصر في النهاية، فتراجعت مهزومة تغسل يديها. بينما اعطى دان تعليماته الى الممرضة المساعدة:

- لقد انتهى الامر، فاجري اللازم يا آنسة، واعملي على ابلاغ ذويه.

لحق دان بجسيكا الى غرفة الملابس منادياً باسمها، لكنها لم تشعر برغبة

في التكلم معه، وضاعفت خطواتها تهرباً من مواجهته. تريد ان تختلي بنفسها ولو لدقائق معدودة تلتقط فيها انفاسها، فما ان وصلت الى الحمام حتى اقفلت الباب خلفها بقوة حابسة نفسها مع الحزن والخيبة.

استعادت هدوءها رويداً رويداً من غير ان تتمكن من مساعدة نفسها على ما فعلته في غرفة العمليات. لا بد من انها اخطأت. لكن كيف؟ حدقت في يديها تستعيد مراحل العملية علها تكتشف شيئاً، لكن ذاكرتها أبت التعاون تاركة اياها فريسة الندم والشرود. فجأة وهي تخلع ثوب الجراحة، تذكرت حادثة بسيطة سبقت صدور ذلك الصوت عن آلة التنفس، ولاحت صورة المصاب امامها من جديد تعيدها الى واقعها الحزين. لقد غاب عن بالها ما رأته قبل ان تعلن تلك الآلة اللعينة الخبر المشؤوم. لقد تلوث قميصها وقفازاها ببقع من الدم المجمد في الوقت الذي بدأ المبضع يشق طريقه في صدر المصاب. مما يعني ان عنصر الوقت هو الذي قضى على المريض وليس مبضعها. لو كان بامكانها ايقاف الزمن او اختلاس بضع دقائق اخرى فربما كانت كافية لمنع قلب ذلك المسكين عن التوقف.

عند خروجها وجدت دان واقفاً في وسط الرواق قاطعاً عليها المرور. ما يزال مرتدياً ثوب الجراحة الملوثة وعلى وجهه اكثر من سؤال:

ـ هل انت بخير؟

ـ اني... اني على ما يرام.

ـ هذه الأمور تحدث دائماً يا جسيكا.

ـ أعلم ذلك.

ـ لقد فعلت ما بوسعك.

ادارت وجهها ناحية النافذة وعيناها تكادان تدمعان:

ـ لكن... آه، علي ان املأ بعض المستندات واتهيأ لمقابلة ذوي المريض.

حط يده على كتفها تمنعها من التحرك:

ـ جسيكا... اياك ان تخاطري بحياتك مرة اخرى.

التقت نظراتهما لثوان اعادت اليهما تلك الدقائق الرهيبة التي قضتها في الشاحنة المتأرجحة على حافة الوادي.

ـ انها سيدة رائعة.

ـ الجميع هنا لطفاء معي، وأنا مسرورة بالعمل.

لم تسنح الفرصة لجسيكا للتحدث الى والدها على انفراد حتى بعد ظهر اليوم التالي. جلسا في غرفة الجلوس بينما تمددت اميليا في غرفتها، يحدثها باعجاب عن المستشفى وعن جولته في ارجائها:

ـ اعترف يا جسيكا بأني اعجبت كثيراً بالدكتور اوبريان. لم أعرف شيئاً بعد عن شريكه.

فوجئت جسيكا بعبارة ابيها واحتارت كيف تخفي انفعالها بجبة بتلعثم:

ـ دان ترافورد؟ آه، انه... انه طبيب لامع وجراح ماهر، ويبدي اهتماماً بجراحة الاعصاب.

توقف جوناثان عن مراقبة الدخان المتصاعد من غليونه والتفت اليها سائلاً باهتمام:

ـ أصحيح؟ هل ستتسنى لي مقابلته؟

ـ استبعد ذلك، فهو... (لاحظت علامات الخيبة على وجه والدها فاستدركت) هل اتصل به وادعوه لتناول فنجان من الشاي؟

رحب جوناثان باقتراح ابنته هاتفاً:

ـ ولم لا؟

من حسن حظها انها نقلت الهاتف من غرفة الجلوس، فلم ير والدها ارتجاف يدها وهي تدير قرص الهاتف في غرفة نومها. تهادى الى مسمعها صوت انثوي هادىء النبرات، فأحست بقشعريرة تسري في جسمها وسألت:

ـ أهذا منزل الدكتور ترافورد؟

ـ أجل، لكنه في اجازة عطلة الأسبوع. بامكانك الاتصال بشريكه الدكتور اوبريان.

قطع الخط قبل ان تسنح الفرصة لجسيكا للاستيضاح، فاعادت السماعة الى مكانها وعادت ادراجها الى غرفة الجلوس بعينين تائهتين يعتصرهما الألم. بادرها جوناثان بالسؤال:

ـ هل سيأتي؟

تهادت على مقعدها شاردة الذهن وتمتمت:

فارتأيت ان تقضي ليلتها عند بيتر وفيفيان.

جلس على كرسي قريب من الطاولة فوضعت فنجان القهوة أمامه وجلست في مواجهته.

ـ يبدو ان ميجان تمضي معظم عطلتها مع فيفيان، بدلاً من ان تمضيها معك.

ـ هذا لأني منهمكة بالعمل هذه الايام وفيفيان مولعة بالاطفال. عدا ان بقاءها مع فيفيان كان الحل المناسب في الوقت الذي اضطر فيه للبقاء في العيادة.

ـ لا شك في ذلك.

لم تعجبها لهجته الساخرة، فانتفضت بانفعال سائلة:

ـ الى ماذا ترمي يا دان؟

ـ اعتقد ان جلب ميجان الى هنا كان خطة مدروسة.

ـ حقاً؟

ـ اجل، ففيفيان وبيتر لم يرزقا اولاداً وميجان فتاة يتيمة. وان نحن جمعنا الحالتين معاً نكوّن عائلة مثالية.

ـ لكني يا دان...

قاطعها وكأنه يدرك ما يجول في خاطرها:

ـ لن أضيف كلمة أخرى ان كان هذا ما تخشينه. كل ما أريده هو التأكد من صحة ظني.

تململت جسيكا في مقعدها:

ـ كيف عرفت؟

ـ الأمر في منتهى البساطة، فبيتر لم يترك مناسبة الا وتحدث فيها عن ميجان وعن الاوقات الممتعة التي يقضيانها معاً، وهذا ما دفعني الى التساؤل عن حقيقة المدة التي أمضتها معك. أنها أدلّة كافية على ما حاكت يداك.

ـ حل رائع لكلا الطرفين. ألا توافقني الرأي؟

ـ بكل تأكيد، انما لا يغربن عن بالك استحالة التلاعب بمشاعر العالم كما يحلو لك.

تعلم انه على حق في ما يقول، لكنها لم ترد الاعتراف بذلك واحست

بكرهها له فأجابت بعناد:

ـ انه الحل الافضل.

افرغ فنجانه دفعة واحدة ودفعه بعيداً عنه، ثم تطلع اليها ساخراً:

ـ وماذا سيحصل في حال فشلت خطتك الذكية؟

ـ سيخيب ظني طبعاً.

ـ والصغيرة المسكينة سترسل في أول قطار الى الميتم الذي جاءت منه، كطرد بريدي غير مرغوب فيه.

ـ لا تتكلم عنها بهذه الطريقة.

ـ واجهي الحقيقة يا جسيكا. جعلت الصغيرة تدرك معنى الحرية وترى ما يوجد خارج جدران سجنها. أعدتها الى اجواء العائلة التي عرفتها مرة واحدة منذ زمن بعيد، ومن الاجحاف ان تعيديها من جديد الى واقعها المرير في الميتم.

استدارت لتواجهه، لكنها فوجئت به وقد وقف خلفها مباشرة، فاستندت الى الحائط تبرر موقفها:

ـ لقد حسبت حساب كل شيء. ان اخفقت خطتي فأنا من ستتحمل تأنيب الضمير ولا احد غيري.

ـ يسعدني سماع ذلك لأني للمرة الاولى لن أشاركك هذا العبء.

أجابت بحدة من غير ان تتمكن من السيطرة على ارتعاشها:

ـ لم أتوقع ان يشاركني احد ذلك.

ـ انت جميلة حين تغضبين!

ـ اصمت. ارحل من هنا واتركني وشأني.

ـ هل يمكنني ان اخفف من تأنيب ضميرك؟

رفعت وجهها بثقة:

ـ ضميري مرتاح.

ـ حقاً؟ لن يظل طويلاً على هذه الحالة.

اجابت بسرعة تحاول مقاومة نظراته المزعجة:

ـ أرحل قبل ان...

لم تقو على اكمال تهديدها، فقد عانقها بحرارة طال لهيبها كل جسمها. حاولت الافلات لكن يده انسلت الى عنقها تمنع عليها الحراك، فوضعت

www.liilas.com

راحتيها على صدره تجاهد في الامتناع عن التجاوب. لكن مقاومتها لم تدم طويلاً واختلطت دقات قلبيهما بعدما فقدت السيطرة على أحاسيسها.

لكنها ما ان افلتها من طوق ذراعيه حتى احست بجسامة ما ارتكبته.

- لم تكملي عبارتك يا جسيكا.

احست بالاهانة التي حمّلها جملته، فتراجعت خجلة تجاهد في السيطرة على اضطرابها:

- من الأفضل ان... ان تذهب.

تقدم منها وكأنه لم يسمع ما قالت هامساً في اذنها:

- أهذا أمر؟

أحست بشحنات كهربائية تسري في عروقها دفعتها الى دفن وجهها في صدره. انه سيد الموقف ويدرك تماماً ما يفعله، فهتفت بصوت متهدج:

- أرجوك يا دان... أرجوك توقف.

سلّط عليها نظرات ساقرة، وقال وهو يترك يديها المرتجفتين:

- حسناً، كان الامر يستحق المحاولة.

خرج من غير ان يزيد كلمة أخرى، وبقيت جسيكا مسمرة حيث تركها، تلعن نفسها على الضعف الذي اظهرته مع هذا الطبيب المراوغ. انها تشعر بميل هائل اليه وقد يكون حباً، لكنه لا يشكل مبرراً لاستسلامها له بهذه الطريقة السهلة. اتكأت على الكرسي الخشبي خلفها تتكهن برأيه فيها بعد الذي حصل منذ دقائق. لم تفكر يوماً ان تنافس فتاة أخرى على قلب رجل، وخاصة سيلفيا سامرز. وان لم تتحكم أكثر بعواطفها في المستقبل فان دان سيظن انها حقاً تسعى لانتزاعه من حياة سيلفيا.

في الأيام التي تلت، انهمكت جسيكا بالعمل فلم تسنح لها الفرصة لتهتم بمشاكلها العاطفية، لكن الشيء الوحيد الذي لم تستطع التخلي عن التفكير به، كان قضية ميجان وكلام دان عن امكانية فشل خطتها. فعطلة الصغيرة شارفت على الانتهاء من غير ان تفاتحها فيفيان برأيها فيها.

ارتأت التحقق من حقيقة الأمر بنفسها فدعت ميجان الى منزلها لتمضية السهرة، وبعد العشاء انتقلتا الى غرفة الجلوس حيث تمددت جسيكا على الاريكة الطويلة وطوقت الصغيرة بذراعيها مستفهمة بحنان:

- كنت عابسة الوجه طوال الوقت، هل هناك ما يزعجك؟

أجابت ميجان من غير تردد، وقد ازداد تجهم وجهها:

- سأغادر هذا المكان غداً.

- هل استمتعت بعطلتك؟

اغرورقت عينا الصغيرة بالدموع:

- آه كثيراً لكن... كم اتمنى ان أبقى هنا الى الأبد.

رفعتها جسيكا بذراعيها تضمها الى صدرها برفق وتمسح دموعها:

- ما الذي اعجبك اكثر في هذه العطلة؟

- كل شيء، لكن صداقة فرانسين تبقى الأفضل، فهي حقاً نعم الصديقة، واتفقت معها على تبادل الرسائل و... آه لقد نسيت العمة فيفيان والعم بيتر. لقد احببتهما كثيراً وكأنهما والداي.

- هل انت متأكدة من أحاسيسك هذا؟

اسندت الطفلة رأسها الى كتف جسيكا وطوقت عنقها بذراعيها:

- ليتني ابقى هنا ولا أعود الى ذلك الميتم الكريه. سأشتاق اليهم واليك انت ايضاً.

ضمتها جسيكا الى صدرها تاركة شعر الصغيرة الناعم يخفي دموعاً ترقرقت على وجنتيها.

- وأنا أيضاً سأشتاق اليك، سآخذك الى سريرك.

ادخلت جسيكا الصغيرة الى غرفتها، وبعد ان تأكدت من انها غفت نزلت الى الطابق السفلي وتسللت من باب المطبخ الى الحديقة متجهة الى منزل آل اوبريان. لم تقرر بعد كيف ستفاتح بيتر بالأمر ولكنها لن تلغي خطتها وتترك الأمور كما هي عليه.

ما زالت مكتبة بيتر مضاءة، فاتجهت على مهل الى نافذة المكتبة ووقفت تسترق النظر الى الداخل. فيفيان بين ذراعي زوجها تشهق بالبكاء كمن حلت به مصيبة. لم يسبق ان رأتها بهذه الحالة فالصقت اذنها بالنافذة تحاول التنصت الى ما يدور بين الزوجين.

- لا يمكنني ان ادعها تعود يا بيتر.

اكتفت جسيكا بهذا القدر من التجسس خشية ان يتنبه احدهما لوجودها، وقفلت راجعة الى مسكنها. لا بد وان فيفيان تعني الطفلة بكلامها، فاغلقت الباب خلفها بهدوء وجلست في غرفة الجلوس تتوقع ان

يقرع بابها بين اللحظة والاخرى.

وحدث ما توقعته، فبعد نصف ساعة سمعت قرعاً خفيفاً على باب المطبخ فسارعت الى اشعال النار تحت غلاية الماء قبل ان تفتح الباب.

ابتسمت للزائرين مرحبة:

- تفضلا، كنت أحضر فنجاناً من الشاي ويسعدني ان تشاركاني.

- سنشربه معك هنا، في المطبخ.

حضرت الاكواب بينما جلس بيتر وفيفيان الى الطاولة ساكتين.

نجحت فيفيان في ازالة آثار الدموع عن عينيها، من غير ان تفلح في اخفاء اضطرابها عن جسيكا وهي تقدم لها كوب الشاي.

- جسيكا... في ما يختص بميجان...

كتمت جسيكا انفعالها وسألت متصنعة جهلها سبب زيارتها:

- ما بها ميجان؟

سارع بيتر الى الاجابة بلهجة حازمة:

- نرغب بتبنيها.

انفرجت اسارير جسيكا فجأة وهتفت بسرور:

- يا له من قرار!

لم يلحظ اي من الزوجين وقع الخبر على جسيكا، واردفت فيفيان مستوضحة:

- هل هناك من قد يعترض على ذلك؟ أعني... احد اقربائها أو أي وصي عليها؟

- لن يعترض احد يا فيفيان.

التفت بيتر الى زوجته مبتسماً:

- في هذه الحالة لا اعتقد اننا سنواجه اية مشكلة.

ارادت فيفيان ان تتأكد من ان كل شيء سيكون على ما يرام فقالت مقترحة:

- علينا بالتحدث الى ميجان أولاً، فقد لا تروق لها الفكرة.

- سأناديها حالاً، فأنا أعرف ميجان وهي ولا شك ما زالت مستيقظة.

اوقفها بيتر قبل ان تتخطى باب الغرفة:

- قبل ان تفعلي ذلك يا جسيكا، نود ان نخبرك بما قررنا ان نفعله. لا

نريدها ان تعود الى جوهانسبرغ غداً فبامكانها اكمال سنتها الدراسية هنا في لويزفيل.

علت شفتي جسيكا ابتسامة عريضة واجابت موافقة:

- اني واثقة من امكانية تدبير ذلك. فلوالدي صلات وثيقة مع احد النافذين هناك، وبامكانه مساعدتنا.

تبادل الزوجان نظرات الرضى قبل ان تلتفت فيفيان الى جسيكا:

- هل يمكننا التحدث الى ميجان الآن؟

- سآتي بها في الحال.

انحنت جسيكا فوق سرير الطفلة هامسة برفق:

- ميجان حبيبتي، يسعدني انك لم تنامي بعد. بيتر وفيفيان يودان التحدث اليك.

لم تجب جسيكا على اسئلة الصغيرة وهي ترتدي خفيها بسرعة واعدة اياها بأنها ستعرف كل شيء عما قريب. وامسكتها بيدها ونزلتا معاً الى المطبخ، حيث تبادلت الصغيرة مع الزائرين نظرة سريعة، التفتت بعدها فيفيان نحو زوجها سائلة:

- هلا اوضحت الامر لميجان يا بيتر؟

رد الدكتور اوبريان بحنان:

- سأترك الامر لك يا عزيزتي.

فتحت فيفيان ذراعيها ونادت ميجان بتودد:

- تعالي يا حبيبتي.

هرولت الطفلة تطوق عنق عمتها بذراعيها الصغيرتين بينما اردفت فيفيان بتأثر:

- ما رأيك بالبقاء هنا معنا؟

- تعنين معك ومع عمي بيتر؟

- اجل يا حبيبتي.

لمعت عينا ميجان فرحاً مستفهمة:

- بصورة دائمة؟

- اجل، فنحن نرغب بأن تكوني ابنتنا.

لم تصدق الطفلة اذنيها فهتفت:

- أتريدان ان تتبنياني؟

- أجل... (ولاح طيف الشك في عيني فيفيان للحظات ثم اكملت) شرط ان تكوني راغبة في ذلك أيضاً.

دمعت عينا الطفلة وغمرت فيفيان متمتمة:

- أجل، أجل أرجوك!

اختلطت دموع السيدة اوبريان بدموع الصغيرة وضمت الطفلة بقوة الى صدرها تدفن وجهها في الضفائر الناعمة:

- ميجان، حبيبتي لقد ادخلت السعادة الى قلبينا بعد سنين طويلة من الغم والتعاسة.

وقفت جسيكا تنظر الى المشهد المؤثر بعينين تشعان فرحاً. فخطتها لقيت النجاح الذي توقعته لها وأفلحت في تكوين أسرة سعيدة.

رفعت الطفلة رأسها تسأل فيفيان:

- أهذا يعني اني لن أعود الى جوهانسبرغ غداً؟

رد بيتر بحزم:

- من الآن وصاعداً ستبقين معنا في لويزفيل.

قفزت الطفلة هاتفة بفرح:

- آه، كم أحبك يا عمتي فيفيان، وأنت أيضاً يا عمي بيتر!

- والآن يجب ان تخلدي للنوم يا ميجان وفي الصباح الباكر سآتي لاصحبك الى منزلنا.

أجابت الطفلة مطيعة:

- حسناً، تصبحون على خير... واشكركما على تبنيكما لي.

لم تعد جسيكا قادرة على كبت دموعها، فاشاحت بوجهها ناحية النافذة تاركة لعينيها حرية التعبير عن فرحها وتأثرها. وما ان غابت الطفلة عن ناظري فيفيان حتى اتكأت على ذراع زوجها متمتمة:

- والآن يمكنني ان استرسل في البكاء.

اعترض بيتر محذراً:

- لا لن تفعلي، فقد بكيت كفاية هذه الليلة.

مسحت عينيها باناملها موافقة:

- أظنك على حق يا بيتر، انا آسفة يا عزيزي.

انحنى الدكتور اوبريان أمام زوجته واحتواها بذراعيه، ومرة أخرى اشاحت جسيكا بوجهها عن مشهد عاطفي، انما من نوع آخر.

- سأتكلم الليلة مع والدي وسيطلعني على نتيجة اتصالاته في الصباح.

امسك بيتر بيد زوجته وتوجها نحو الباب:

- حسناً، الامر بين يديك الآن يا دكتورة نيل.

اغلقت جسيكا الباب خلفهما، وما ان خلت بنفسها حتى راحت تقفز فرحاً وزهواً، وهرعت الى غرفة الجلوس لتتصل بوالدها.

وفت فيفيان بوعدها في اليوم التالي، وجاءت في ساعة مبكرة لاصطحاب ميجان ومساعدتها في نقل حوائجها الى منزلها الجديد. وما ان اقفلت جسيكا الباب خلفهما حتى رن الهاتف في غرفة الجلوس وكان المتحدث والدها.

- انباء سارة يا جسيكا، اوراق التبني ستكون جاهزة غداً وسترسل في اسرع وقت ممكن الى المحكمة في لويزفيل.

احتارت جسيكا لشدة فرحها كيف تشكر والدها، واقفلت السماعة بسرعة وتوجهت مباشرة الى العيادة حيث دخلت على الفور غرفة بيتر لتعلمه بالأمر.

تراخى الدكتور اوبريان على كرسيه مبتسماً:

- شكراً يا جسيكا (ولمعت عيناه ببريق غريب مردفاً) لم تبد عليك علامات الاستغراب ليلة البارحة حين انبأناك بعزمنا على تبني ميجان وكأنك على علم بقرارنا.

ادركت جسيكا القصد من عبارته، فاجابت بصدق متجنبة النظر في عينيه:

- بعد ان وضعت اوليفيا طفلها، وخلال تبادل الحديث مع فيفيان اكتشفت لديها توقاً الى ان يكون لها طفل.

- لذلك تعمدت جلب ميجان الى هنا، وكل ما يحدث الآن هو نتيجة خطة رسمتها بنفسك!

- لقد راهنت بالرغم من فداحة الخسارة، ولكني في المقابل كنت أعلم اني لو نجحت سأدخل السعادة الى قلوب ثلاثة.

- انت انسانة مميزة يا دكتورة جسيكا.

ونهض عن كرسيه ليقف في مواجهة النافذة، من غير ان ينجح في اخفاء دموعه عنها. وسادت الغرفة دقائق صمت طويلة احتارت جسيكا خلالها ماذا تفعل، أتبقى ام تخرج؟ لكن صوته علا من جديد بنبرة حزينة:

- طوال السنين المنصرمة حاولت وفيفيان ان نتظاهر أمام بعضنا وأمام الناس بعدم اكتراثنا بانجاب الاولاد، وأظن اننا نجحنا في ذلك، الى ان دخلت ميجان حياتنا. ابتسامة واحدة منها كانت كافية لتصب الزيت على نار كنت أخال سعيرها قد همد في قلبينا. ابتسامة واحدة كشفت لنا الفراغ الهائل الذي تعاني منه حياتنا. كلنا وقعنا في حب ميجان منذ النظرة الأولى، وهي بادلتنا الشعور ذاته في وقت قصير وكأنها فرد من العائلة. لا أدري كيف أشكرك على صنيعك هذا يا جسيكا.

- لا لزوم للشكر يا دكتور اوبريان لأنه سيزيد من احراجي.

ولم تعطه الفرصة ليتفوه بكلمة اخرى وخرجت عائدة الى عيادتها. لم تشعر بهذا القدر من الفرح والارتياح منذ أمد بعيد. لقد كسبت الرهان واعادت الحياة الى منزل بيتر وفيفيان، وخلصت تلك الطفلة من براثن ذلك اليتيم الكريه. انه تحديها الثاني لدان ترافورد ولكنه ما زال متفوقاً عليها بنقاط كثيرة...

ما ان مضى على دخولها عيادتها دقائق حتى فوجئت بدان واقفاً كعادته قرب الباب:

- آه، الدكتورة نيل صانعة الأعاجيب. ضربة من عصاك السحرية قلبت عائلة اوبريان رأساً على عقب.

- الا تشاركها سعادتها يا دان؟

افتر فمه عن ابتسامة هازئة هاتفاً:

- وكيف لا؟ لكن يجب ان تشكري حسن طالعك على ان الامر انتهى الى هذه النتيجة، والا لكانت الطفلة الآن في طريقها الى حياة تكره كل لحظة فيها وتلاحقك لعنتها الى الأبد.

اجابت بهدوء وعيناها لا تفارقان عينيه:

- لقد شكرت حسن طالعي على شيء آخر ايضاً، وهو انه لن تسنح لك الفرصة لتردد على مسمعي ذلك التحذير الذي ما برحت تردده.

- انك تسيئين فهمي يا جسيكا، فأنا لا أقلل من أهمية ما قمت به. لكن

رهانك كان خطيراً.

- اتظن اني اغفلت خطورته؟ لقد امضيت ليال طويلة اصارع الخوف والهواجس، ناهيك عن القلق من امكانية فشل خطتي. لكنها في النهاية نجحت. فارجوك احتفظ من الآن وصاعداً بملاحظاتك الساخرة لنفسك.

- مهنتك كطبيبة تفرض عليك الاعتناء بحالة مرضاك الجسمية وليس حالتهم النفسية. وان كنت ستنجرفين في المستقبل وراء عاطفتك في تعاملك معهم، فأنا اقترح ان تقلعي عن مزاولتك الطب وتبحثي لنفسك عن مكتب تعالجين فيه المشاكل الاجتماعية والنفسية لدى الناس.

انتفضت جسيكا بحنق ظاهر وهتفت بملء صوتها:

- انك على حق، فقد أقوم بذلك قريباً.

التفت نظراتهما للحظات، ثم طوق خصرها بذراعيه مقرباً اياها منه بقوة كادت تمنع عليها التنفس، وقال بابتسامته المعتادة:

- أتعلمين يا جسيكا؟ تبدين اكثر اغراء عندما تغضبين.

همت بالكلام لكنه أحنى رأسه وعانقها، فحاولت التملص من ذراعيه لكنه امسك بيديها وراء ظهرها ثم راح بحنكة الخبير يهمس باسمها قرب اذنيها. ولم تعد قادرة على المقاومة فاستسلمت راضخة الى تلك الكتلة من اللهب.

سمعا طرقاً على الباب فافلتها دان بسرعة واستدارت ناحية مكتبها تحاول اخفاء احمرار وجنتيها عن عيني الممرضة هانسن وهي تدخل الغرفة لتجمع ملفات المرضى:

- آه، ما زلتما هنا؟

أجاب دان بهدوء حسدته عليه جسيكا المضطربة:

- كنا على وشك الرحيل.

- لقد اتصلوا بك من المستشفى يا دكتور ترافورد، فالسيدة روكس تعاني من ألم حاد في الصدر وصعوبة في التنفس.

- سأذهب في الحال (وتوقف عند الباب ملقياً نظرة أخيرة على جسيكا) سأراك لاحقاً.

وقفت الممرضة عند الباب ترقب دان يبتعد في آخر الرواق، وقالت:

- بالرغم من صغر سنك كطبيبة، فقد فرضت نفسك في هذا المكان ولما

يمض على وصولك اكثر من ثلاثة شهور. لقد حظيت باعجاب الجميع وتقديرهم، مما سيسبب كدراً للبعض في هذه المدينة الصغيرة.

أجابت جسيكا وهي تدقق في محتويات حقيبتها الجلدية:

- لقد بذلت ما في وسعي لأقوم بواجبي كاملاً.

- انت تقومين باكثر من ذلك. تعاملين الناس بطريقة مختلفة. أي انك تنظرين اليهم كبشر وليس كسلعة. لنأخذ الدكتور اوبريان مثلاً...

قاطعتها جسيكا تدافع عن رجل بدأت تعجب به وبعمله:

- بيتر اوبريان طبيب رائع.

ردت الممرضة مبتسمة:

- لا مجال للمجادلة حول هذه النقطة. لكن انظري ما صنعت به. لم اره في حياتي فرحاً كما كان اليوم. كلنا يعرف حالة زوجته وقصة اصابتها بالعقم، لكن لم يأت احد على ذكر ذلك لأننا لاحظنا ان حرمانها من الاولاد لا يسبب لهما أية مشكلة. الى ان جئت واكتشفت حاجتهما فلم تقفي مكتوفة الأيدي مثلنا، بل حاولت المساعدة وأفلحت.

- آنسة هانسن انك تخجلينني. لقد ساعدتني الظروف والا لما نجحت في مسعاي. فلا يمكنني ان اطالب الآخرين بتبني طفل، فمن المرجح انهم سيرفضون طالبين مني عدم التدخل بأمور لا تعنيني. لكن صدف اني أعرف طفلة تدعى ميجان تشاركها الحاجة نفسها. أما الباقي فقد تحكمت به العاطفة وحدها.

- ما زلت اعتبر عملك رائعاً ولن أغير رأيي.

وخرجت من الغرفة بينما امضت جسيكا بضع دقائق في ترتيب مكتبها قبل أن تعود الى منزلها. اخجلها كلام الممرضة هانسن عن عملها واحست بالحرج وتمنت في قرارة نفسها لو يحذو دان حذو الآخرين ويتخلى عن ملاحظاته الجارحة.

٨ـ نسيت كل ما حولها ولم تعد تكترث بماضيه أو بسمعته. انها تريده بالرغم من مساوئه وعيوبه. تريده لها في هذه اللحظة وفي كل لحظة...

كانت جسيكا تقوم بجولتها الأسبوعية في المستشفى، عندما طلب منها عبر المذياع التوجه فوراً لمقابلة الدكتور اوبريان في العيادة. ادركت على الفور ان هناك طارئاً، فابدلت ثيابها وقادت سيارتها بسرعة جنونية غير مبالية بقوانين السير. وخلال دقائق وصلت أمام العيادة وتوجهت مباشرة الى مكتب بيتر لتجده مجتمعاً الى دان. ما ان اغلقت الباب خلفها حتى بادرهما الدكتور اوبريان موضحاً:

- تلقيت مكالمة هاتفية من ممرضة خاصة تعمل في مقاطعة فنتا، اخبرتني ان سيدريك كايوفو زعيم المقاطعة مريض ويحتاج لرعاية طبية عاجلة، ونظراً لسنه ارتأت الممرضة عدم نقله من منزله الى المستوصف الذي يبعد عنهم حوالى العشرة كيلومترات.

سأله دان باهتمام:

- مما يشكو يا دكتور؟

- تظن الممرضة انها الزائدة الدودية. الوقت يمر بسرعة واقترح ان ترافقك جسيكا.

- يلزمنا ساعتان او ثلاث لنصل الى هناك في السيارة، فانت تعلم حالة الطرقات في تلك المنطقة.

- قد اطلب من برنارد ايصالكما بطائرته، لكنها لا تتسع لاكثر من راكبين.

تدخلت جسيكا للمرة الاولى منذ وصولها مقترحة:

- بامكاني قيادة الطائرة ان وافق برنارد على اعارتي اياها.

التفتا اليها باندهاش وذهول، وتقدم دان منها سائلاً بسخرية:

ـ هل تجيدين قيادة الطائرة؟

ردت جسيكا بالنبرة نفسها:

ـ أجل وأحمل اجازة في الطيران. هل تود رؤيتها؟

قاطعها بيتر قائلاً:

ـ سأتصل بالمزرعة وان لم احظ ببرنارد سأدع اوليفيا تبلغه الرسالة.

تناول بيتر سماعة الهاتف على الفور، وما هي الا دقائق قليلة حتى استدار ناحيتها مبتسماً بارتياح:

ـ سيهيىء برنارد الطائرة لتكون مستعدة للاقلاع فور وصولكما. وفي هذا الوقت سأتصل بالممرضة في فندا لاتخاذ التدابير اللازمة لاستقبالكما.

هتف دان بحزم متجهاً نحو الباب تتبعه جسيكا:

ـ حسناً، فلنتحرك بسرعة قبل فوات الأوان.

وصلت سيارتا الطبيبين معاً الى المزرعة، حيث كان برنارد في انتظارهما على المدرج الضيق بقرب طائرة صغيرة مخططة باللونين الاحمر والابيض. لم يحاول برنارد الاستفسار عن تفاصيل المهمة، مكتفياً بارشاد جسيكا الى الخط الواجب اتباعه اثناء تحليقها. ثم تقدم من دان الواقف بعيداً وربت على كتفه ممازحاً:

ـ تشجع يا دان فان كانت جسيكا تجيد التحليق كاجادتها الطب، فستكون في أيد أمينة.

ـ بامكاني التفكير باماكن أخرى اكثر اماناً.

سخرت جسيكا منه معلقة:

ـ يا لك من جبان.

ـ وكيف لا أخاف ومصيري بين يدي امرأة؟

تجاهلت عبارته والتفتت نحو برنارد مصافحة:

ـ شكراً جزيلاً على مساعدتك يا برنارد.

وتوجهت بخطى ثابتة نحو الطائرة وجلست خلف المقود، بينما تهادى دان على المقعد المخصص للركاب الى جانبها. اشارت اليه بربط حزام النجاة قبل ان تضع جهاز الاتصال على اذنيها، فانصاع سائلاً بقلق:

ـ هل انت متأكدة مما تفعلين؟

ادارت المحرك ضاحكة:

ـ لا تخشَ شيئاً فستصل الى هناك كتلة واحدة.

ـ حياً او ميتاً؟

ـ حياً كما اتمنى، والآن هلا اقلعت عن المزاح؟

علا صوت المحرك مدوياً وبدأت الطائرة تهتز بهما، بينما أجرت جسيكا اتصالاً تجريبياً مع أقرب قاعدة الى المزرعة، ثم زادت من طاقة المحرك لتنطلق الطائرة بهما في سرعة هائلة على المدرج المعبّد. وما ان اشار عقرب ساعة السرعة الى الحد الاقصى، حتى ارجعت جسيكا المقود الى الوراء وارتفعت الطائرة الصغيرة عن الارض منطلقة كالسهم نحو السماء الزرقاء الصافية.

تمتم دان وقد اسند رأسه الى حافة المقعد:

ـ لا بأس يا جسيكا.

شغلها الفرح بالتحليق من جديد عن الانتباه الى تعليقاته، فبالرغم من كرهها للأماكن العالية لم يزعجها الطيران ابداً، بل اتمت قبل قدومها الى لويزفيل ما يقارب المئتي ساعة من التحليق بطائرات مختلفة الاحجام والانواع.

الجو صحو ومناسب لرحلة كهذه، لا غيوم ولا رياح بل امتداد ازرق نقي تموج في وسطه أشعة شمس ساطعة. اتجهت الى الشمال ـ الشرقي تستدل على خط تحليقها بواسطة خارطة صغيرة معلقة في سقف الطائرة. وان سارت الأمور طبيعية فستحط في أرض فندا بعد ثلاثين دقيقة من الآن.

خرقت جو الصمت المخيم عليهما منذ الاقلاع سائلة:

ـ هل لديهم غرفة للجراحة في المستوصف؟

ـ لا اعتقد ذلك، بل لديهم ما يكفي للحالات الطارئة.

ـ ماذا سنفعل اذا تعذر علينا نقل المريض؟

ـ عندها سنجري العملية في المنزل.

ابتسمت بسخرية معلقة:

ـ يبدو انك تحمل غرفة الجراحة في حقيبتك!

ـ ماذا تعنين بكلامك هذا؟ تعلمين جيداً اننا قد نضطر الى اجراء

العملية بما قد تملك من تجهيزات بدائية.

تخلت عن مراقبة اتجاهها لتواجه عينيه الغاضبتين:

- أعلم ذلك. لكني اردد ما قلته لي مرة، اتذكر؟

- آه فهمت. تقصدين ملاحظتي لك لعدم نقلك اوليفيا الى المستشفى اثناء ولادتها. أليس كذلك؟

- أجل.

- لكن الظروف مختلفة الآن.

- لا ارى أي اختلاف بين ما قد نضطر للقيام به وما قمت به مع اوليفيا. لا بل المخاطرة اكبر بكثير هذه المرة.

أجاب بتململ ظاهر:

- دعينا من المناقشة الآن.

- حسناً، لن أتكلم من الآن وصاعداً.

- هل أنت غاضبة؟

- لست غاضبة يا دان. لكني لا أفهم تحديدك للحالة الطارئة.

- الأمر في غاية البساطة. عندما تصادفك حالة كالتي ستواجهنا بعد قليل فتسمى حالة طارئة. أي بامكانك التصرف بما هو متوافر لديك.

- حالة اوليفيا كانت من الحالات الطارئة التي تتكلم عنها، فتصرفت بما توافر عندي من امكانات طبية، ولا أفهم لماذا انفعلت يومها.

- لأن في مثل هذه الحالات، يحتفظ الرجال ببصيرتهم اما النساء...

قاطعته ضاحكة بالرغم من حنقها:

- لا تكرر علي هذا القول ثانية. انت تخيب ظني يا دان، فأنا لم أتوقع ان تكون من الذين يميزون بين الجنسين.

- كل رجل يخفي في داخله نزعة للتمييز. انما ليس هذا ما قصدته. النساء ينظرن الى الأمور بمنظار العاطفة وأنت أصدق مثال على ذلك.

توانٍ من الصمت نظرت خلالها الى لوحة القيادة، ثم علقت ببرودة:

- لو كانت يداي حرتين في هذه اللحظة، لما توانيت عن صفعك.

فهقه دان معلقاً:

- لديك يدان ناعمتان يا جسيكا وتسرني ملامستهما، غاضبة كنت أم لطيفة.

ايقنت انها عاجزة عن مجاراته في الكلام ونظرت اليه بغضب:

- من الأفضل ان تساعدني في العثور على مدرج الهبوط قرب المستوصف، فلا شك في انه يقع في مكان ما هنا.

حطت الطائرة الصغيرة بنجاح في المدرج الوحيد في فندا، وما ان ترجلا منها حاملين حقيبتيهما الطبيتين، حتى هرول في اتجاههما رجل أسود قدم نفسه على انه باتريك كابوفو شقيق الزعيم المريض، فقادهما على جناح السرعة الى سيارته السوداء الفخمة لتنطلق بهم الى منزل آل كابوفو.

فوجئت جسيكا لدى وصولهم بالبساطة الغالبة على منزل الزعيم وهو الذي يعد من أهم شخصيات المقاطعة. فقد تمدد على سرير قديم في وسط منزل خشبي اشبه بالكوخ، ومقسم الى مطبخ وغرفة جلوس وغرفتي نوم، ومبني على الطريقة القديمة واثاثه شبه بدائي، لكنه نظيف ومرتب وسقفه المكون من القش وأغصان الشجر، يبعث برودة منعشة بالرغم من الحر الشديد في الخارج.

بدا الزعيم بقامته المديدة وجسمه الضخم ككتلة من الشحم معدة للشواء، راح يتلوى من الألم وقد غطى الزبد فمه وجحظت عيناه، يضغط بيديه على حافتي السرير مطلقاً أنيناً خافتاً. بدا واضحاً انه من الذين يولون بطونهم أهمية بالغة حتى اوشك السرير ان يتحطم تحت ثقله.

اقتربت منهما امرأة سوداء وقدمت نفسها على انها الآنسة رافيل ممرضة الزعيم الخاصة. وهمست في اذن دان عدة كلمات توجه على اثرها نحو السرير وجثا بالقرب منه واضعاً يده على جبين الزعيم الملتهب.

- الألم يا دكتور، انه يكاد يقتلني.

- أعلم انه ألم رهيب ايها الزعيم لكنه سيزول بعد قليل.

مد الزعيم يداً مرتعشة ناحية جسيكا سائلاً:

- من هذه السيدة؟ زوجتك يا دكتور؟

رمق دان جسيكا بنظرة ساخرة مجيباً:

- كلا أيها الزعيم، فانا لست متزوجاً. انها الدكتورة جسيكا وقد جاءت لتعاونني.

- على كل رجل ان يتزوج.

لم يعلق دان على كلام الزعيم، بل امسك بيد جسيكا وأومأ للممرضة بأن تتبعهما الى خارج الغرفة.

تطلعت جسيكا الى وجهه العابس مستوضحة:

- ماذا ستفعل يا دان؟

- لا نستطيع نقله من هنا فالوقت يمر بسرعة، عدا عن ان حياته ستكون بخطر ان نحن حركناه قيد أنملة.

التفتت الى غرفة المريض ثم استدارت نحوه بذعر:

- هل ستجري العملية في تلك الغرفة؟

- ليس لدي خيار آخر (والتفت الى الممرضة رافيل يعطيها تعليمات سريعة) سنحتاج الى طاولة لوضع الزعيم عليها، ضوء قوي، ماء ساخن، والكثير من الخرق المعقمة. بادرت الممرضة الى تنفيذ التعليمات بسرعة مدهشة، بينما تدبر شقيق الزعيم أمر المصباح وأوصله الى بطارية السيارة. وبعد فترة وجيزة حمل عدد من القرويين الزعيم السمين الى طاولة مستطيلة فتولت الممرضة التحضير للعملية.

نظر الزعيم بقلق الى الطبيبين يتفحصان آلات الجراحة وقال مخاطباً دان:

- اشفني وسأعطيك عشر بقرات مهراً لعروسك.

ضحكت جسيكا في سرها لالحاح الزعيم على فكرة الزواج، لكن دان بقي على عبوسه واجاب وهو يتفحص قوة الضوء:

- لا تنسَ ان تقاليدنا تختلف ايها الزعيم.

- هناك أمور لا يختلف رأيان حولها. يجب ان يكون لكل رجل زوجة (والتفت نحو جسيكا مستطرداً) ولكل امرأة رجل. انها سنة الحياة.

- عليك بالاقلاع عن الكلام الآن ايها الزعيم. ستخلد الى النوم لفترة، وعندما تستيقظ ستكون أفضل حالاً.

تمتم الزعيم باللغة المحلية كلمات لم يفهمها غير الممرضة رافيل ولم يكترث بها دان، بل أشار الى جسيكا.

غرزت جسيكا رأس الحقنة في احد عروق ساعد الزعيم وانتظرت لحظات قبل ان ترفع رأسها مخاطبة دان:

- بامكانك البدء بالعمل يا دان.

- أأنت مستعدة يا آنسة رافيل؟

- رهن اشارتك يا دكتور ترافورد.

- حسناً فلنبدأ الجراحة.

لم يسبق لجسيكا ان أجرت جراحة في ظروف بدائية مماثلة، فأحست بشيء من الاضطراب بخلاف دان، الذي بدا هادئاً وهو يعمل مبضعه في جسم الزعيم حتى بانت الزائدة الدودية الملتهبة فتطلع الى جسيكا والعرق يتصبب من جبينه:

- الأمر أخطر مما كنت اعتقد، فالزائدة قد انفجرت. علينا ان نمنع استفحال الالتهاب.

بعد حوالى الساعة، خلع دان قفازيه الملطخين بالدم وساعد جسيكا على نقل الزعيم الى غرفة مجاورة، حيث أعدت له الممرضة سريراً مريحاً فغطياه جيداً وتناولا حقيبتيهما بعدما عهدا الى الآنسة رافيل بالعناية به.

خرجا الى الساحة الصغيرة أمام المنزل حيث التقيا بباتريك كابوفو، فطمأناه الى صحة أخيه.

- هل ستغادراننا على الفور يا دكتور ترافورد؟

- لن نرحل قبل التأكد من زوال الالتهاب تماماً، وقد يستغرق ذلك يوماً كاملاً.

فوجئت جسيكا بجواب دان لاسيما وان اياً منهما لم يجلب معه ثياباً اضافية. فقد توقعا عملية جراحية بسيطة ولم يحسبا حساباً للالتهاب. هتف شقيق الزعيم بارتياح:

- عظيم، فالليلة نقيم احتفالاً هاماً ويشرفنا حضوركما. ستشاهدان رقصة الدومبا تؤديها الفتيات اللواتي تحضرن للزواج والمعروفة برقصة الأفعى لدى البيض.

انفرجت اسارير دان شاكراً مضيفه:

- شرف لنا ان نكون ضيفيك.

- تعالا اذن، سارشدكما الى كوخيكما.

لم تعلم جسيكا ما يجول في خلد دان. ففكرة النوم في كوخ بدائي اثارت في نفسها قلقاً وهلعاً. لكن ما ان وقع نظرها على المكان الذي ستمضي فيه ليلتها، حتى علت الدهشة وجهها.

كوخ حديث الشكل، سقفه متقن الصنع واثاثه من خشب الصنوبر، ويحتوي على حمام مجهز بأحدث أساليب الراحة.

لاحظ باتريك اندهاشها فقال موضحاً:

- ما زال سيدريك يفضل العيش كما في السابق، أما هذه الاكواخ فقد صممت واثثت خصيصاً لراحة ضيوفه.

توردت وجنتاها خجلاً وقالت:

- لا شك في اننا سنتنعم بالراحة فيها. شكراً جزيلاً.

التفت نحو دان سائلاً:

- هل اتصل بالدكتور اوبريان لأخبره ببقائكما هنا الليلة؟

- سنكون لك من الشاكرين.

- أمرت احدى زوجات اخي بالسهر على راحتكما وتأمين كل احتياجاتكما. سأناديكما حالما يظهر القمر، لأن الاحتفال يبدأ فقط عند حلول الظلام.

انحنى امامها باحترام وانصرف تاركاً جسيكا مع دان امام باب كوخها.

- يبدو اننا مقبلان على سهرة مسلية.

- هل شاهدت رقصة الافعى من قبل؟

- أجل انما في أحد الافلام السينمائية، وأنت؟

- سنحت لي فرصة مشاهدتها بعد وصولي الى لويزفيل بايام، وهي تستحق المشاهدة مرة اخرى.

- اني اتحرق شوقاً لرؤيتها!

لم يلحظ ابتسامتها، فقد استدار من غير ان يلتفت اليها متوجهاً الى كوخه. فدخلت الكوخ المخصص لها واقفلت الباب خلفها، فالحر الشديد يسبب لها دواراً، والتعب بدا ينهش اوصالها. ما ان تمددت على السرير حتى سمعت طرقاً على الباب ففتحته لتجد نفسها أمام عربة صغيرة صفت عليها أطباق الطعام وابريق كبير من عصير البرتقال المثلج. شكرت جسيكا الفتاة التي جلبت العربة واقفلت الباب من جديد، لتملأ معدتها الخاوية بهذه

الوجبة اللذيذة. بعدها اخذت حماماً بارداً واخلدت للنوم بعد نهارها المضني.

لم تدر كم من الوقت غفت، لكنها استيقظت لتجد دان منحنياً فوقها... للمرة الأولى يراها من غير تبرج.

همس دان بسخرية بعد ان لاحظ ارتباكها وتورد وجنتيها:

- العشاء جاهز.

وكأنه قرأ ما يجول في خاطرها، توجه نحو الباب مردفاً:

- طلبت من زوجة الزعيم ان لا تزعجك، فقامت بتجهيز مائدة لشخصين في كوخي.

تنفست جسيكا الصعداء وهي تراقبه يهم بالخروج وقالت:

- سأكون جاهزة بعد عشر دقائق.

فتح الباب وقبل ان يخرج استدار نحوها يتأمل مرة اخرى كل جزء من جسمها:

- فلتكن خمس دقائق، فأنا لا أحب اللحم بارداً.

استعادت هدوءها بعد ان أغلق الباب خلفه، فارتدت ثيابها بسرعة.

كان الظلام قد بدأ يرخي ستاره الداكن عندما انتهيا من تناول العشاء، فخرجا الى الفسحة الصغيرة أمام الكوخ يتنزهان على الحشيش الأخضر ويرقبان بصمت ظهور القرص الفضي في قبة السماء.

بعد قليل، انضم اليهما باتريك وتوجهوا جميعاً عبر الممر الصخري الى ضفة النهر، حيث اشعلت النيران استعداداً لبدء الاحتفال.

أمام الساحة المخصصة للرقص وقف باتريك يشرح لهما:

- في كل عام، تأتي الفتيات من المناطق المجاورة والبعيدة للمشاركة بالاحتفال الذي يرعاه الزعيم سدريك. والليلة لدينا ما يقارب المئة والخمسين مشتركة، وهي أكبر نسبة منذ البدء باقامة الاحتفالات.

لم يقتصر الحضور على جسيكا ودان، بل غصت الساحة بالمشاهدين وقد تحلقوا حول النار يترقبون بدء الاحتفال.

فجأة اخترق المتجمهرين رجل طويل القامة زين رأسه بريش الطيور، ويرتدي ثوباً غريباً صمم خصيصاً للاحتفال، فخيم صمت كلي على الحاضرين عند رؤيتهم الرجل وقد وقف في وسط الحلقة، وهمس دان في

اذن جسيكا:

ـ انه قائد الدومبا، والدومبا تعني الحياة الضخمة.

لحقت الفتيات بقائدهن وقد ارتدين ملابس شفافة وعلقن في اعناقهن عقوداً من الزهر الاحمر والابيض. تحلقن حوله بطريقة منظمة وباشارة من يده رحن يقمن بحركات، استعانت جسيكا بباتريك لتدرك معناها:

ـ قبل الزواج تتابع الفتيات دروساً في الزواج، يتعلمن خلالها أصول الحياة الزوجية، وهن يحاولن الآن اظهار ما تعلمنه.

ثابرت الفتيات على القيام بتلك الحركات الغريبة لفترة قصيرة، ثم بدأ قرع الطبول بوتيرة متناسقة راحت تعلو رويداً رويداً، ودب الحماس بالمتفرجين عند رؤيتهم قائد الدومبا يرفع يديه بحركة شبه هستيرية هاتفاً بكلمات مبهمة، اضطر باتريك لتوضيح معناها لجسيكا:

ـ خرجت الحية من جحرها.

اصطفت الفتيات واحدة تلو الأخرى متخذات شكل الافعى وبدأن بالرقص أمام ناظري جسيكا المشدوهة. ثم رحن يتلوّين أمام ألسنة النار المشرئبة نحوهن، ويترنحن بحركات منظمة على وقع الطبول وكأنهن شخص واحد.

مأخوذة بسحر الاحتفال، اتكأت جسيكا الى كتف دان واحست بذراعه تطوق خصرها. لم تبال بتصرفاته وبقيت مشدودة الى منظر الافعى تلهب الأرض بحركاتها المجنونة، وكأنها في عالم آخر. انها ليلة غير اعتيادية وكل ما فيها لا ينتمي الى المعقول.

خمدت النيران بعد ساعتين من الجنون الفاتن واستسلمت الساحة الى هدوء ثقيل مرتمية في احضان الظلام، فانسحبت فتيات الدومبا الى اكواخهن طلباً للراحة، وسكتت أصوات الطبول. بعدها رافق باتريك ضيفي الامسية الى مسكنيهما متمنياً لهما ليلة هانئة، وعاد ادراجه الى منزل الزعيم سدريك.

ما زال صدى نغمة الطبول يضج في رأسها فتحسها شلالاً هادراً في دمائها. ما برحت نشوة الرقص تخدر احاسيسها وتأسر خيالها، فلم تقاوم محاولة دان لعناقها فاحتمت به بقوة وهو يرفعها بذراعيه ويتوجه بها الى كوخه.

لم تشعر يوماً بحاجتها كما تحتاج دان الآن.

نسيت كل ما حولها ولم تعد تكترث بماضيه او بسمعته، انها تريده بالرغم من كل مساوئه وعيوبه، تريده لها في هذه اللحظة وفي كل اللحظات...

فجأة طرق باب الكوخ بقوة، فانتفضت جسيكا مذعورة. لكن دان سارع الى وضع يده على فمها مانعاً اياها من الانفعال او الصياح، فوجودهما معاً بعد امراً منافياً لتقاليد المقاطعة، عدا عن ان كونهما معاً سيسبب حرجاً لمضيفهما الزعيم، خاصة وان دان قد ابدى اعتراضاً على الزواج وقبول الهدية. رفعت يدها تحرر فمها من قبضته وهزت رأسها هامسة:

ـ لن أصيح، فأنا ادرك مغبة وجودنا معاً.

ربت دان على كتفها مبتسماً وصاح سائلاً:

ـ من هناك؟

أجابت الممرضة رافيل بنبرة مضطربة:

ـ أصيب الزعيم بحمى قوية، هلا أتيت في الحال يا دكتور ترافورد؟

ـ سألحق بك فوراً.

توردت وجنتا جسيكا حياء وهي تسمع خطوات الممرضة تعود أدراجها الى منزل الزعيم.

ـ اني آسف يا جسيكا!

احتارت بما تفسر أسفه. فاجابت بنبرة يغلب عليها الحياء:

ـ الأفضل ان تذهب، وسألحق بك بعد دقائق.

غادر الكوخ على عجل، تاركاً جسيكا ترتعش بالرغم من دفء المكان. ولما ايقنت انه اغلق الباب، نهضت واقفة تفكر بما تفعله هنا.

ماذا كان مصيرها لو لم تأت الممرضة في تلك اللحظة؟ كانت ستصبح بكل بساطة ذكرى عابرة في احدى صفحات مغامراته، او فتاة مسكينة تجرر أذيال خطئها تائهة في هذا العالم. خرجت من كوخه كاللص تحاول الاختباء كلما سمعت صوتاً او لمحت خيالاً، وتوجهت مباشرة الى منزل الزعيم.

رائحة الادوية تملأ الغرفة، والنور الشاحب المنبعث من القنديل القديم يضفي على المكان جواً من الرهبة، فدخلت متفادية النظر الى دان الذي بدوره لم يول وصولها أي اهتمام. بدا مختلفاً عما كان عليه منذ دقائق يضمها

اليه ويهمس لها بكلمات عذبة، فقد عاد الى رزانته يعاملها كطبيبة مساعدة لا أكثر، فتنفذ أوامره وتعليماته. لم تعترض على تحوله المفاجىء، فهي بحاجة ماسة الى ما يصرفها عن التفكير بما حصل في الكوخ. فتناولت الحقنة من يد دان وغرزتها في ذراع الزعيم يرقبان بقلق ردة فعله للدواء. بقيا قرب المريض حتى منتصف الليل حينما نهض دان عن مقعده وامسك بيده يتفحص نبضه ثم علق بارتياح:

- بامكاننا ان نرتاح الآن، فقد زال الخطر.

همست الممرضة مقترحة:

- سأبقى الى جانبه لفترة ثم استدعي من يحل مكاني.

اومأ دان برأسه موافقاً وحمل حقيبته يحاول اللحاق بجسيكا قبل ان تغيب عن ناظريه، وسار الى جانبها صامتاً وكأنه فقد القدرة على النطق. تمنت لو يقول لها شيئاً، أي شيء يساعدها على التخلص من قلقها وخوفها، ان يتفوه بكلمة تطمئنها وتزيل الفتور القائم بينهما. لكنها لم تسمع سوى تحطم الاغصان اليابسة تحت اقدامهما تجرّح السكون المخيم على القرية بأسرها.

وصلا الى أمام كوخها فوقفت عند الباب وتمنت له ليلة هانئة. لكنه طوقها بذراعيه يحاول ضمها اليه، فدفعته عنها بهلع قائلة بنبرة حازمة:

- لا يا دان. ما حصل منذ ساعات كان غلطة لا اريدها ان تتكرر.

امسك بكتفيها ضاغطاً بانامله على جلدها الطري حتى كادت تصرخ من الألم:

- لم تكن غلطة يا جسيكا. كنت تريدينني بقدر ما كنت أريدك.

- لا انكر ذلك. كانت نزوة ولا أكثر وانا نادمة على ذلك.

رفع يديه عنها بقوة فاوشكت ان تقع وسألها بحنق:

- هل انت جادة في ما تقولين؟

في كلماته شيء من القلق المجبول بالصدق، لكنها لم تشأ المجازفة واتكأت الى الباب ترفع خصلات شعرها عن وجهها مجيبة بصوت متهدج:

- أجل... اني اعني ما أقول.

بقي صامتاً للحظات كبركان يستعد للانفجار، ثم علا صوته متوعداً:

- في هذه الحالة، لا أرى داعياً لخوفك مني بعد الآن فانا لن المسك ثانية.

اثارت كلماته القشعريرة في جسمها وكأنها كتل من الجليد اخترقت اعماقها، وراقبته يبتعد عنها بخطوات ثابتة والألم يجز في نفسها.

هجر الكرى عينيها تلك الليلة فراحت تتقلب في فراشها مستسلمة لدوامة من الافكار، تراجع ما مر عليها طوال اليوم. منذ بدء رقصة الدومبا واللحن المثير الذي سرى في عروقها، لا تعي سوى حاجتها الى حب رجل تدرك كل الادراك انه سيتخلى عنها فور نيل مأربه منها. حاولت منذ البداية ان تنظر اليه كطبيب فقط وليس كرجل قادر على اغواء أية امرأة، لكنها اكتشفت استحالة تجاهل تأثيره الى الأبد، فهو رجل يصعب تجنبه لما يتمتع به من رجولة وقوة. انه يتمتع بمقدرة هائلة على تحريك مشاعرها واثارتها، وقد اثبت هذا منذ لقائهما الأول، فوجدت نفسها في وسط التيار الجارف تقاوم شيئاً أقوى منها بكثير. احبته بسرعة وبسهولة وتركته يقلب حياتها رأساً على عقب.

امر واحد يغيظها ويقلقها في آن، وهو حيازها الشديد منه. احست بجدار خفي يفصلها عنه ويبقيه لغزاً غامضاً. لا تنكر انه كان لطيفاً معها، لكن لطافته ليست سوى وسيلة للوصول الى مبتغاه فهو ليس من الذين يتوسلون القوة والعنف لنيل مآربهم.

أحست بضياع رهيب عاجزة عن تفسير احاسيسها، فلجأت الى البكاء تدفن بدموعها سخطاً هائلاً على نفسها وألماً مبرحاً يفجر اعماقها. وللمرة الاولى منذ سنوات تبكي لتنام ولكن، حتى النوم لم يخفف من وجعها. فصورة دان غزت احلامها ورأت نفسها جاثية أمامه متوسلة حنانه وحبه وهو يضحك ساخراً منها يرفسها برجله بتعجرف وسطوة.

استيقظت في الصباح الباكر على تغريد الطيور والدموع تبلل وجنتيها، ففتحت نافذة الكوخ ترحب بدفء الشمس يلفح وجهها بعد ليلة من العذاب والقهر.

ارتدت ثيابها بسرعة ووقفت أمام المرآة تتأمل وجهها الشاحب وعينيها اللتين اذبلهما الحزن. ثم تناولت حقيبتها الطبية واتجهت الى منزل الزعيم سدريك.

٩- ما قامت به لا يغتفر ابداً. وهي في قرارة نفسها لم تقصد ان تؤذيه. لكن خوفها منه أعمى بصيرتها. هل يكتفي بالاعتذار؟

شقت جسيكا طريقها وسط الحشد الهائل من القرويين الذين تجمهروا امام منزل زعيمهم ينسقطون الأخبار عن صحته بقلق ووجوم. واضطرت للتوقف مراراً لتجيب على اسئلتهم من غير ان تسدي اليهم خدمة تذكر، فهي لا تفهم حرفاً مما يقولون. وصلت الى المنزل شبه منهارة وسارعت الى اغلاق الباب خلفها، تجاهد في منع الفضوليين من اقتحام الغرفة.

كان دان جالساً الى جانب الزعيم وقد انتهى للتو من معاينته، فلم يلتفت اليها حينما دخلت، ولم يعرها ادنى اهتمام وهي تستوضح حالة المريض. اكتفى بأجوبة مقتضبة فظة متفادياً الخوض في التفاصيل، فلزمت الصمت وجلست قرب الممرضة تترقب بشوق ساعة العودة الى منزلها في لويزفيل. لا حاجة لبقائها هنا بعد اليوم، فصحة الزعيم في تحسن ويمكن ان يعهد الاعتناء به الى الآنسة رافيل.

وقف دان وكأنه أدرك ما يجول في خلدها وخاطب الممرضة:

- زال الخطر كلياً ومن الآن سيكون في عهدتك. سأطمئن الأهالي.

واجه في الخارج عشرات العيون الحائرة تمطره بنظرات قلقة، فطلب من باتريك ان يطمئنهم على صحة زعيمهم وزوال الخطر عنه. وبعد لحظات علت صيحات المتجمهرين وتقدم منه شيخ جليل متكلماً باسم الباقين وطلب منه ومن جسيكا مشاركة أهل القرية الافطار، فقبل دان الدعوة شاكراً.

بعد الفطور حزم الطبيبان حقيبتيهما وعرجا على خيمة الزعيم مرة اخرى لتوديعه قبل عودتهما الى لويزفيل.

لفت انتباههما وهما يقتربان من الخيمة، صخب شديد في الاسطبل المجاور وصيحات الرعاة تدوي في كل مكان. وعلى بعد عدة أمتار من الاسطبل وقف باتريك يراقب ما يحدث مصدراً بين الحين والآخر أوامره.

كل ما يحدث كان لغزاً بالنسبة الى جسيكا ولكن ما ان دخلا الخيمة حتى أدركت سبب الضجة بعد ان بادرهما الزعيم العليل قائلا:

- لقد اختار اخي نخبة قطعاننا، أريدك ان تختار منها عشرة زوّوس مقابل ما بذلته من جهد لانقاذي. ولا تنسَ يا دكتور ان تجد لنفسك عروساً.

اختلفت وقع عبارته هذه المرة على جسيكا، فالغبطة التي احستها المرة الأولى حلت مكانها غصة خانقة بعد تصرف دان معها ليلة البارحة. حتى دان بدا منزعجاً من ملاحظة الزعيم فاعتذر بنبرة مهذبة:

- أقدر لك اهتمامك بموضوع زواجي ايها الزعيم، اما الماشية فاعذرني عن عدم قبولها لجهلي امور تربيتها والاعتناء بها. وعن بدل الأتعاب فأنا أترك مناقشة ذلك لشريكتي.

لم يعلق الزعيم على رد دان مكتفياً بالابتسام، وصفق مرتين هرولت على الأثر زوجته وكأنها كانت تنتظر اشارته، حاملة علبة كبيرة وضعتها أمام زوجها وجثت على الأرض قرب فراشه.

راقبته جسيكا بفضول وهو يحل رباط العلبة ويخرج منها جلد أفعى، وازدادت عيناها اتساعاً حين مد يديه المرتجفتين اليها قائلا:

- أفعى الدومبا تجلب الخير والحظ. انها تساعد على انجاب ذرية جيدة.

توردت وجنتاها وازداد ارتعاشها عندما لاحظت نظرات دان المسلطة عليها، فأجابت بصوت متهدج:

- لست متزوجة ايها الزعيم.

عاود الرجل المريض الابتسام وهتف:

- لا أهمية لذلك، فالرجل أيها الطبيبة يشبه أفعى الدومبا عندما ينتهيا للبحث عن عروس. ويزداد شراسة ونهماً كلما تمعن في البحث، ولا يترك لفريسته أية فرصة للهرب حينما يضرب ضربته.

لم يبد على جسيكا انها فهمت ما يقوله فرفع يده مودعاً:

- بأمان الله يا دكتور ترافورد ودكتورة نيل، سيرافقكما أخي الى المطار.

جلسا في المقعد الخلفي لسيارة باتريك السوداء الكبيرة ونظر دان الى الهدية في حضنها معلقاً:

- لقد احسنوا اكرامك، فجلد الأفعى هذا لا يقدمونه سوى في المناسبات النادرة، وللأشخاص المميزين.

شعت عيناه القاتمتان ببريق اعتادت ملاحظته كلما حاول ان يسخر منها، فحولت نظرها عنه بانزعاج وقد عاودتها فجأة ذكرى الليلة الماضية، وتأججت نارها في فكرها من جديد تلسعها وتؤلمها. ستحتاج الى بعض الوقت لتنسى خجلها بعد السماح له بالتمادي في تصرفاته معها.

لم تكن رحلتهما في الطائرة الى لويزفيل مريحة كما تمنت جسيكا ان تكون. فالطقس الغائم جعل الرؤية شبه معدومة، وتسبب في مطبات هوائية بذلت جسيكا جهداً كبيراً لتفاديها.

- ما الذي دفعك لتعلم الطيران؟

- رافقت اخي مرة في تمارينه وأعجبتني الفكرة.

- هل تحتفظين بمفاجآت أخرى غير اجادتك الطيران؟

أقلعت جسيكا عن التحديق في ساعات القيادة مبتسمة:

- لا أعتقد.

حطت الطائرة في المدرج المخصص لها في جو ممطر وعاصف اكتنزت فيه السماء بغيوم سوداء ثقيلة، يشق احشاءها بين الحين والآخر لمعان برق كألسنة اللهب يصحبه دوي رعد مخيف.

وصلت جسيكا الى سيارتها وقد بللها المطر من رأسها حتى أخمص قدميها، فجلست خلف المقود تنشف شعرها ويديها. بعد لحظات وصل برنارد بشاحنة صغيرة وترجل منها متوجهاً نحو سيارة دان ثم عاد ادراجه الى الشاحنة مشيراً لها بالسير خلفه مباشرة. احست ببعض الارتياح لمواكبة برنارد لها، فقيادة السيارة في جو عاصف كهذا وفي شوارع تملؤها السيول والوحول، يعد ضرباً من الجنون. سار الثلاثة على مهل في شوارع المدينة الغارقة بالضباب وقد تحولت الى بحيرات من شدة غزارة المطر المنهمر، ورافقهما برنارد حتى مشارف لويزفيل حيث أطلق منبه شاحنته عدة مرات مودعاً وقفل راجعاً من حيث أتى. فأكملا طريقهما كل في سيارته الى ان

وصلت منزلها فاستسلمت لحمام ساخن كان أفضل ما حصلت عليه هذا الصباح.

وانتظرت حتى هدأت العاصفة ثم توجهت الى العيادة حيث كان الدكتور اوبريان في انتظار سماع اخبار الزعيم سدريك.

تنبهت جسيكا خلال رحلتها الى مقاطعة فندا الى وجوب تجديد رخصة الطيران، فعملت، في الاسبوع الذي تلا عودتها الى لويزفيل، على تحضير ملفها الطبي وضمنته كل ما تحتاجه من مستندات وأوراق وقدمته الى بيتر أثناء تناولهما الغداء معاً في العيادة.

- لا ينقصه سوى توقيعك يا دكتور اوبريان قبل ان أقدمه للدوائر المختصة.

ابتسم بيتر وهو يقطع شريحة اللحم في طبقه:

- لن يستغرق الأمر طويلا.

- عظيم، فبودي ان أعاود ممارسة هوايتي المفضلة.

قطع عليهما حديثهما هدير شاحنة وجلبة قوية في الشارع امام المبنى، فنهض بيتر عن مقعده هاتفاً بحدة:

- ما هذه الضوضاء المزعجة؟

وهرول الاثنان الى النافذة المطلة على الطريق ليقع نظرهما على شاحنة ضخمة متوقفة امام مدخل المبنى، محملة بعدة رؤوس من الماشية تتناحر وتتدافع في الصندوق الحديدي.

- ماذا تفعل شاحنة كهذه في وسط المدينة؟

بدأ الشك يساور جسيكا، لكنها احجمت عن ذكر شيء امام بيتر وهو يحاول بانفعال ظاهر فتح النافذة.

- انا متأكدة من ان الممرضة هانسن ستتدبر الأمر بسرعة.

- لا يبدو انها تلقى نجاحاً في مسعاها، فالسائق مصرّ على البقاء في مكانه.

- من الأفضل ان نذهب ونتحرى الأمر.

انضما خلال ثوان الى الممرضة الحانقة وبادرها بيتر سائلا:

- هل تواجهين متاعب يا آنسة هانسن؟

- اعتقد ان الدكتور ترافورد يواجه مشكلة، فهذا الرجل يدّعي بأنه من

قبل الزعيم سدريك الذي أوكل اليه مهمة تسليم هذه الماشية الى الدكتور ترافورد مقابل انقاذ حياته.

تمتم الدكتور اوبريان محاولا كبت انفعاله:

- حسناً، من الأفضل ان نطلب من دان الحضور الى هنا.

ابتسمت الممرضة بمكر:

- سأقوم بذلك في الحال يا دكتور اوبريان.

نظر بيتر الى حمولة الشاحنة ثم التفت الى جسيكا سائلا:

- أتعرفين شيئاً عن هذا الأمر؟

لم تقو على تمالك نفسها فانفجرت ضاحكة:

- طلب الزعيم من دان ان يختار بنفسه هديته من الماشية، لكن دان حاول التهرب من ذلك. كما أصر الزعيم سدريك على ان يبتاع دان لنفسه عروساً بهذا القطيع.

شاركها بيتر الضحك لكنه أقلع فجأة عندما لمح دان قادماً:

- يا له من طلب غريب! ها قد أتى دان.

ألقى الدكتور ترافورد نظرة سريعة على الشاحنة مستوضحاً:

- ما المشكلة يا دكتور اوبريان؟

- لا مشكلة البتة يا دان، كل ما في الأمر ان ملكية هذه الحيوانات الثائرة تعود اليك.

جاهدت جسيكا في كبت ضحكتها وهي تشهد تبدل ملامح دان هاتفاً:

- ماذا؟

- من الواضح ان الزعيم سدريك يعتبر ان الوقت حان لتجد لنفسك عروساً.

للمرة الأولى تشاهد جسيكا دان في هذه الحالة من الارتباك والاحراج، فلزم الصمت وقد خانته الكلمات وعقدت المفاجأة لسانه. ثم التفت نحوها وكأنه ادرك المصدر الذي استقى منه الدكتور اوبريان معلوماته عن العروس والقطيع، فأشاحت بوجهها تتظاهر بالنظر الى سائق الشاحنة وقد اشعل سيكارة غير مكترث بما يدور بينهم من نقاش، فكل ما يهمه هو تنفيذ أوامر زعيمه والسهر على اتمام مشيئته.

سأل بيتر بهدوء وجدية:

- هل أطلب من السائق ايصال الماشية الى منزلك؟

انتفض دان بغضب كمن مسه تيار كهربائي:

- تعلم كل العلم انه من المستحيل ان احتمل هذه الماشية وهي تتجول في حديقتي.

تدخلت جسيكا مقترحة بنبرة ساخرة:

- بامكانك ارسالها الى أهل صديقتك في جنوب افريقيا.

صاح دان والشرر يتطاير من عينيه:

- يا للعنة! لا أريد زوجة وعندما أقرر الزواج فلن ابتاعها بقطيع من البقر.

استعاد بيتر رصانته موجهاً كلامه الى دان:

- يجب ان تقرر ما ستفعله بها يا دان، فلا أظن ان الأبقار المسكينة ستقوى على تحمل تلك الحالة المزرية وقتاً أطول.

- بصراحة لا أحفل البتة بما قد يصيبها في هذه الشاحنة اللعينة.

ايقنت جسيكا ان فرصة الثأر من دان ونظراته الساخرة قد حانت، فعلقت بنبرة هازئة متعمدة التحديق في عينيه الثائرتين:

- تصرفك لا يليق بهذه الهدية الجميلة يا دان، عدا عن ان رفضك يعتبر اهانة للزعيم سدريك.

- ان كنت معجبة بها يا دكتورة، فلماذا لا تهتمين بها بنفسك؟

لم تقدر جسيكا على كبت ضحكة قصيرة زادت من جنون دان:

- الرجل هو الذي يقدم المهر الى المرأة التي يختارها وليس العكس. أنسيت قانون القبيلة يا دكتور ترافورد؟

شعر بيتر بأن النقاش سيتحول الى مشادة حقيقية فتدخل محاولا تهدئة شريكه:

- لدي اقتراح يا دان، دع السائق يفرغ حمولته في السهل لترعى وترتاح، وسأطلب من برنارد ان يأخذها في ما بعد الى مزرعته ويبقيها هناك الى ان تقرر ما ستفعله بها.

هتفت جسيكا موافقة:

- فكرة ممتازة، لكن هل ستلقى معاملة جيدة مع وجود قطيع برنارد في الجوار؟

التفت بيتر الى دان يطمئنه ويحول دونه والاجابة:

- سأطلب من برنارد الاهتمام بها كاهتمامه بقطيعه.

- شكراً يا دكتور اوبريان.

تطلع بيتر الى الممرضة قائلا بلهجة آمرة:

- آنسة هانسن، ارشدي هذا الرجل الى السهل بينما سأتصل انا ببرنارد.

أطاعت الممرضة الأمر فوراً وتوجهت الى حيث يجلس السائق وراحت تشرح له بلغته الخاصة ما سيفعله بالماشية.

أمسك بيتر بذراع جسيكا متوجهين نحو العيادة:

- تعالي يا جسيكا، سأخابر برنارد وبعدها ننتهي من ملفك.

توجه الدكتور اوبريان الى مكتب الآنسة هانسن لاجراء المخابرة بينما جلست جسيكا في عيادته تعيد تصفح ملفها.

فجأة سمعت باب الغرفة خلفها يفتح فالتفتت ظانة ان الداخل هو بيتر نفسه، لكن الابتسامة الناعمة المرتسمة على ثغرها تلاشت عندما وجدت نفسها تواجه دان. عقدت الدهشة لسانها فلم تقو على الكلام وهي تراقبه يغلق الباب خلفه ويدس المفتاح في جيبه. ظنت انها تتخيل فصاحت بصوت يشبه الحشرجة:

- ماذا تفعل هنا؟

سار دان بخطى بطيئة ناحية المكتب وراح يتفحص الأوراق المكدسة، ثم قال:

- تلقى بيتر مكالمة طارئة من المستشفى وطلب مني اتمام ملف اجازة الطيران بنفسي.

- ماذا؟

- عندما أريد ان أعاين أحداً فأفضل ان يكون عملي كاملا.

شبكت يديها خلف ظهرها وقالت بحزم:

- لن يحدث هذا ابدا.

تلاقت نظراتهما لثوان واحست بعينيه الرماديتين توشكان على الانقضاض عليها، وهو يتقدم منها مبتسماً ابتسامة غريبة لم تلحظها من قبل.

نهضت عن مقعدها مذعورة، وتراجعت نحو الباب بخطى متعثرة ويداها على وجنتيها الملتهبتين:

- اذا تجرأت على لمسي فسأملأ المكان صياحاً.

ابتسم مجدداً وازدادت عيناه لمعاناً:

- أصرخي ما استطعت، فالأنسة هانسن ذهبت لتناول الغداء (وأشار باصبعه الى باب الغرفة خلفها مردفاً) عدا عن اني أقفلت ذلك الباب والمفتاح في جيبي.

تراخت يداها وتحول لون وجنتيها القرمزي الى أصفر شاحب:

- يا لك من ماكر نذل.

هتف بتململ:

- انك تسببين لي الضجر يا جسيكا. هيا.

لم تخشه كما الآن. وقد تحولت الى هدف سهل لعينيه تجوبانها من رأسها الى اخمص قدميها بنهم ووقاحة. شعرت بجفاف هائل في حلقها، وعاد الدم يلهب وجنتيها فالتصقت بالباب صائحة:

- حسناً يا دان، لقد ثأرت لنفسك. اعترف اني أخطأت بالهزء منك وأنت تتلقى هدية الزعيم. واعترف اني اخبرت بيتر عن مغزى الهدية. لقد أخطأت وأنت الآن تحاسبني على خطئي، وأظن اننا تعادلنا. أليس كذلك؟

بدا وكأنه لم يسمع حرفاً مما قالت وخطا نحوها مردداً بنبرة باردة:

- يبدو انك حقاً تريدينني ان أعاينك بطريقتي.

ما ان أصبح قربها وهم بمد يده اليها، حتى رفعت ذراعها وصفعته على وجهه صفعة تردد صداها في انحاء الغرفة. تسمرت في مكانها تحدق به بعينين ضائعتين، وحاولت الكلام لكنها بدت عاجزة عن فعل أي شيء. ما قامت به لا يغتفر ابداً، وهي في قرارة نفسها لم تقصد صفعه. لكن خوفها منه دفعها الى ذلك بعد ان أعمى بصيرتها.

اشتعلت عيناه وقد هاله ما فعلت، فأمسك بها ضاغطاً بأنامله على كتفيها وصائحاً كبركان ثائر يقذف حممه في كل اتجاه:

- أقسم ألا المسك بعد الآن، لكن عليّ اللعنة ان لم أجعلك تدفعين ثمن ما فعلته.

فجأة، دفعها بقسوة بعيداً عنه، فاستندت الى احد المقاعد مغمضة

العينين فريسة الدوار والارتعاش، وسار الى الباب يفتحه على مصراعيه قائلا بنبرة متوعدة:

- بامكانك الذهاب يا دكتورة، لقد تعادلنا الآن.

لم تصدق للوهلة الأولى انه جاد في كلامه، فبقيت مكانها للحظات ثم هرعت نحو الباب تتحقق من فتحه وخرجت لا تلوى على شيء، تحمل الى منزلها زوبعة من القلق والاضطراب ودموعاً سخية تبلل وجنتيها.

من الواضح انه لم يستسغ سخريتها منه أمام بيتر والممرضة، فثأر منها في العيادة ولا بد أنها تمادت في هزئها حتى استحقت هذا العقاب. ربما لو تقبلت ردة فعله ببرودة لما كان حصل كل هذا، لكن الهلع تملكها وشبح ليلة الكوخ غشى عينيها ففقدت صوابها. تعلم جيداً انه لن يسكت عن فعلتها ولو كانت ناجمة عن خوف. انها تدين له بالاعتذار، ولكن هل يكتفي بالاعتذار وينسى ما حدث، وهل يمحو أسفها آثار أناملها عن وجهه؟

في مساء اليوم التالي كانت جسيكا تستريح في عيادتها، بعد نهار حافل بالمعاينات والمرضى، عندما دخل بيتر حاملا ملفها الطبي.

- جسيكا... بخصوص ملفك الطبي، هل...

قاطعته جسيكا معاتبة:

- لماذا طلبت من دان الاهتمام به يا بيتر؟

- لم أطلب شيئاً من أحد. سألته ان يخبرك عن اضطراري للذهاب الى المستشفى واني سأنهي الملف اليوم بعد الظهر.

- هكذا اذن.

لمعت عيناه ببريق ماكر يسألها:

- هل احتال عليك؟

- يبدو انه لم يحتمل سخريتي فأراد ان يثأر مني...

- وهل أفلح في ذلك؟

- لا وجود للفشل في قاموس هذا الرجل.

غادر بيتر غرفتها بعد ان وضع الملف على الطاولة، بينما خلعت جسيكا سترتها البيضاء وتناولت حقيبتها متجهة الى عيادة دان، حيث وقفت برهة تستجمع قواها قبل ان تقرع الباب وتدخل.

كان دان يرتدي سترته وينتهيأ للرحيل حين ظهرت أمام الباب:
- هل من خدمة أؤديها لك؟
أجابت بكلمات سريعة قبل ان تفقد هدوءها:
- تعلم كل العلم اني هنا لأعتذر عن الصفعة.
- لا تكوني سخيفة يا جسيكا. فأنا أعلم انك استمتعت بها.
- وأنت هل وجدت متعة في العقاب؟
- اجل في حينه (وأردف مبتسماً) لقد استحقيت عقابك اما الآن فأنت تستحقين شيئاً افضل.

قبل ان تدرك نواياه سارع الى اغلاق الباب ووجدت نفسها أسيرة عناقه. المقاومة كانت آخر ما فكرت فيه بعد ان واجهها بطريقة تختلف عن المرة السابقة. لكن ما ان مضت لحظة، حتى انتفضت بين ذراعيه وتراجعت متمتمة بعبارات متقطعة:
- لا... لا تفعل...

لم يعترض دان على تراجعها بل لزم مكانه مستوضحاً بوجه عابس:
- مما تخافين هذه المرة يا جسيكا؟ من نفسك؟

وحمل حقيبته ومضى من غير ان يفسح لها في المجال للاجابة. لقد ذكر الخوف قبل ان يرحل وما ادراه عن مقداره في نفسها؟ انه يعلم فقط حقيقة الهلع الذي سببه لها البارحة، لكنه يجهل حجم الخوف الذي تثيره احاسيسها في نفسها.

بعد اسبوعين، وصل والدا جسيكا لتمضية عطلة الاسبوع معها، حاملين أوراق التبني اللازمة التي على بيتر وفيفيان توقيعها لدى المحكمة في لويزفيل.

وفي نفس الليلة، أقيمت حفلة خاصة في منزل آل اوبريان، احتفاء بقدوم جوناثان وزوجته، ضمت عشرات المدعوين تحلقوا حول حوض السباحة في الحديقة، ومن بينهم اوم هايني، والعمة ماريا دلبورت وبرنارد واوليفيا كينغ...

جلست جسيكا الى جانب اوليفيا تحدثها وتداعب الطفل الجالس في حضنها، عندما رأت دان يدخل الحديقة ويتوجه مباشرة الى حيث يجلس بيتر.

تمنت لو لم يأت الليلة، فهي على يقين انه سيفسد عليها الحفلة ويحرجها امام اهلها والمدعوين، فلزمت مكانها تراقبه من بعيد ينضم الى والديها بعد ان قدمه بيتر اليهما.

لم يستغرق دان وقتاً طويلا حتى يحوز على اعجاب السيدة نيل وزوجها، بأناقته المعهودة وسحره المتألق.. فزالت الكلفة بسرعة بين الثلاثة يتسامرون ويضحكون. ثم انسحب بيتر متوجهاً الى وسط الحديقة ممسكاً بيد ميجان وهتف بالحاضرين قائلا:
- أسالكم جميعاً الترحيب بابنتنا ميجان اوبريان، التي يسعدنا كثيراً ان تنضم الى عائلتنا. اشكركم جميعاً على مشاركتنا فرحتنا.

علت عبارات الترحيب من كل صوب ودارت ميجان مع والديها بين الحاضرين للتعارف، وعند وصولهم الى حيث تجلس جسيكا رفع بيتر يده طالباً من الحاضرين الاصغاء:
- كلمة أخرى أود اضافتها. شكر خاص للدكتورة نيل التي ندين لها بكل ما نتمتع به من سعادة.

وقفت جسيكا وقد توردت وجنتاها خجلا وهي تسمع صيحات الموجودين تعلو من جديد مرحبة بها وأنظارهم مسلطة عليها. تلاقت عيناها وعينا دان الواقف في الطرف الآخر للحديقة يراقب المشهد، فلوح لها بيده والابتسامة تعلو وجهه. لم تتمكن من ملاحظة تعابير وجهه، لكنها على ثقة بأنها تعابير هزء وسخرية كالعادة، فعادت الى مقعدها بقرب اوليفيا تلاعب الطفل في محاولة لخنق شعور بالاضطراب ساورها فجأة.
- أشكرك بدوري يا جسيكا على ما قمت به لسكان هذه المدينة.
- لا أظن اني فعلت ما يستحق كل هذا يا اوليفيا.

همست العمة ماريا مقاطعة:
- حان الوقت لتجدي لنفسك عريساً يا حلوتي. ستبدوان رائعين أنت وطفلك.

أيدت اوليفيا قول العجوز هاتفة:
- العمة على حق يا جسيكا. انت تعشقين الأطفال فلا تضيعي وقتك، وابدئي بالاهتمام جدياً بفكرة الزواج.
- عليّ ان أجد الزوج المناسب أولا.

انفرجت أسارير العمة ماريا وقالت بلهجة ماكرة:

- ما رأيك بدان؟ سبق وقلت لك انه زوج مثالي.

تنبهت اوليفيا الى ان المحادثة بدأت تتطرق الى أمور شخصية بحتة، فالتفتت الى العجوز مقترحة:

- علينا ألا نستعجل الأمور يا عمة، فجسيكا ستجد الرجل المناسب في الوقت المناسب.

نظرت جسيكا اليها شاكرة وناولتها الطفل قائلة:

- من الأفضل ان تأخذي لوغان. اريد ان أتحدث قليلا الى ميجان.

توجهت الى مكان ميجان وفرانسين، واضطرت في طريقها للمرور بقرب دان الواقف مع مجموعة من الرجال مديراً لها ظهره يستمع الى برنارد يتحدث عن الصيد. وما ان باتت خلفه مباشرة حتى استدار ناحيتها يبتسم لها، وتلاقت نظراتهما للحظات طويلة قبل ان تتمكن بعد جهد من الافلات من سطوتها ومتابعة طريقها.

- مرحباً ايتها الجميلتان. كيف حال ميجان اوبريان؟

لمعت عينا ميجان عجبة بزهو كبير:

- اني سعيدة جداً يا دكتورة نيل وبت واثقة الآن من اني لن أغادر هذا المكان ابداً.

التفتت جسيكا الى ابنة برنارد سائلة:

- ما رأيك يا فرانسين؟

ابتسمت الصغيرة ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان ناصعة:

- رائع ان يكون لي ابنة خال. وخلال العطلة القادمة سأعلمها ركوب الخيل.

- لا شك في انكما ستمضيان وقتاً ممتعاً.

قفزت ميجان الى حضن جسيكا هاتفة:

- سيكون نهاراً عظيماً.

علا صوت دان خلف جسيكا سائلا:

- أي نهار هذا يا ميجان؟

جاهدت جسيكا في الحفاظ على هدوئها وهي تلتفت لمواجهة الزائر الجديد، بينما أجابت ميجان والبسمة لم تفارق شفتيها:

- اليوم الذي ستعلمني فيه فرانسين ركوب الخيل.

جثا دان امام فرانسين يستوضح باهتمام:

- هل تجيدين ركوب الخيل يا فرانسين؟

- أجل يا دكتور، لقد دربني والدي وهو فارس ماهر.

طوقت ميجان عنق جسيكا بيديها تسألها بدلال:

- هل تركبين الخيل يا دكتورة جسيكا؟

- لا يا عزيزتي.

تدخلت فرانسين قائلة:

- واوليفيا لا تركب الخيل ايضا، فقد سقطت يوماً عن صهوة جواد. يقول والدي ان على من لا يجيد ركوب الخيل ان يبقى بعيداً عنها، فهي حساسة جداً.

نظر دان الى جسيكا معلقاً بسخرية:

- وهناك ايضا أشخاص حساسون للغاية، وفي الواقع انا أعرف واحداً منهم يخجل من الحقيقة الى درجة كبيرة.

ومدّ ذراعه تستلقي حول خصرها فانتفضت مبتعدة عنه.

- ارجو المعذرة، اظن فيفيان تود التحدث الي.

أفلحت في التخلص من ذراعه لكنها بقيت هدفاً لنظراته الساخرة وهي تجتاز الحديقة.

بادرتها السيدة اوبريان قائلة:

- اريد التحدث اليك على انفراد منذ وصول والدك البارحة مع اوراق التبني. نود ان نشكرك على ما فعلته لأجلنا وفي الحقيقة لا أدري من أين أبدأ.

- لا تقولي شيئاً يا فيفيان. يهمني ان أراك سعيدة.

- آه، اننا سعداء، سعداء جداً.

- اذن هذا يكفيني.

جففت السيدة اوبريان دموعها مبتسمة بحنان:

- بما اننا نتكلم عن السعادة، فقد لاحظت ان دان يبدو مكتئباً هذه الأيام. هل تعتقدين انه يواجه مشاكل مع تلك السيدة من بريتوريا؟

تصنعت جسيكا اللامبالاة مشيحة بوجهها الى البعيد:

- لا أدري يا عزيزتي.

- ليست مفاجأة ان يقع اخيراً في غرامها، وستؤدي له خدمة كبيرة ان تخلت عنه بعد ذلك.

شعرت جسيكا بالغيرة تمزقها، انه ما زال يقابل سيلفيا سامرز. وحاولت اقناع نفسها بنسيان الأمر، لكن السؤال راح يكبر في رأسها حتى كاد يتحول الى صراخ.

طوال السهرة، تجنبت جسيكا قدر المستطاع التحدث الى دان مكتفية بالنظر اليه بين الحين والآخر يتحدث الى والديها. واضح انه حظي باعجابهما فقد امضيا السهرة بأكملها يستمعان اليه. وتجاهلت عدة مرات اشارة والدتها لها بالانضمام اليهم مفضلة البقاء بعيدة وحيدة مع هواجسها وتساؤلاتها...

١٠ - «قد تدوم علاقتكما سنة أو سنتين وبعدها تتحولين الى صفحة بالية في دفتر ذكرياته. وتقييده بسلاسل الزواج يحتاج الى امرأة خارقة تعرفه حق المعرفة.»

فاجأ جوناثان نيل ابنته بالسؤال وهي تهم باشعال النور في غرفة الجلوس:

- الا توافقيني الرأي بأن دان ترافورد شاب لطيف وذكي؟

قاطعتها اميليا بحماس ممعنة النظر في جسيكا:

- اني اراه جذاباً ايضاً، وقد دعوته لتناول العشاء غداً مساء.

هتفت جسيكا باستياء واضح:

- اماه! لماذا؟

فوجئت الوالدة بردة فعل ابنتها:

- لا ارى مبرراً لاستيائك يا جسيكا.

- هل قبل الدعوة؟

- بكل سرور. في الحقيقة يا جسيكا لا ادري كيف افسر موقفك منه. فهو بهي الطلعة، جذاب ويملك من الرجولة قدراً يستحيل عليك تجاهله أو معاملته كواحد من مرضاك. لا امرأة، وحتى انت تستطيع النظر اليه من غير ان تشعر بشيء غريب في داخلها.

كانت لتجد تعزية وراحة في قول امها، لو انها لم تلق من دان تلك الصدمات المتتالية فأجابت بعصبية:

- انت محقة في ما ذكرت. لكن...

- لكن ماذا؟

تنهدت جسيكا والغصة تكاد تخنقها:

- كل ما في الأمر، اننا لا نتفق في امور كثيرة.

www.liilas.com

- ولم لا يا ابنتي؟

انضم الوالد الى النقاش قائلاً:

- ربما هناك تفسير كيميائي، فكل مركبين عند وضعهما معاً يتجاوبان أو يتباعدان.

حدجت اميليا زوجها بنظرة ثاقبة معلقة:

- كنت دائماً امقت نظرياتك العلمية، اما الآن فأجدها مناسبة ومنطقية.

لاحظ الأب صمت ابنته وارتباكها فتقدم من زوجته مقترحاً:

- لنوقف هذا التحقيق الآن، فالوقت متأخر وجميعنا متعبون.

همت اميليا بالاعتراض، لكن جسيكا تمنت لهما ليلة هادئة وتوجهت الى غرفة نومها.

أبت عيناها الاستسلام للرقاد طوال الليل فبقيت تصارع الأرق من غير جدوى. دعوة دان الى العشاء تشغل فكرها وتقلقها. قد يخطىء بكلمة أو بحركة امام والديها وتقع الطامة الكبرى.

في الصباح، لزمت فراشها الى ان سمعت جلبة في الطابق الأسفل، فأيقنت ان والديها استيقظا، فتحاملت على نفسها بالرغم من تعبها وانضمت اليهما لتناول الافطار.

وقفت جسيكا ووالدتها في المطبخ تضعان اللمسات الأخيرة على اطباق الطعام قبل نقلها الى الطاولة، عندما طرق الباب الخارجي، فوضعت اميليا ما في يديها وهتفت بحماس كلي:

- لا شك في انه دان.

تمتمت الابنة متصنعة اللامبالاة:

- اظن ذلك.

- حسناً، الن تبادري الى استقباله؟

- والدي في غرفة الجلوس وسيفتح له الباب.

ضاقت اميليا ذرعاً بعناد ابنتها فصاحت بسخط:

- يمكنك على الأقل القاء التحية.

تهادى صوت جوناثان مرحباً:

- اهلاً يا دان، تفضل بالدخول.

- ارجو الا اكون قد بكرت في الحضور.

- ابداً، النساء في المطبخ وأنا اكره الجلوس بمفردي.

توجها الى غرفة الجلوس، في حين اصلحت اميليا هندامها وقالت قبل ان تغادر المطبخ:

- اذا كنت قد نسيت اللياقة وحسن الضيافة، فأنا لم انسها.

بقيت جسيكا وحيدة تحاول تهدئة نفسها قبل مواجهتها دان امام والديها. حاولت التنصت الى ما يدور بينهم في الغرفة الأخرى، فلم تسمع سوى قهقهات وهمسات غير واضحة ضاعفت من ارتباكها، فتمنت فجأة لو ان السهرة في نهايتها فيضطر دان الى الرحيل قبل ان تقابله.

عادت الى العمل علها تنسى الضيف الذي جاء يقلق راحتها، ولكنها فوجئت بدان يدخل المطبخ بهدوء ويقف قبالتها قائلاً:

- لا اظنك تمانعين بالانضمام الينا.

كادت تطيح بالأطباق من شدة اضطرابها فاستندت الى حافة الطاولة متمتمة:

- لا ابداً، لكني متهمكة ببعض الأعمال هنا.

- اظن ان دعوتي الى العشاء لم ترق لك.

ادركت انه لاحظ اضطرابها، وبات من المستحيل اخفاء حقيقة شعورها:

- اصبت في ظنك.

- لماذا يا جسيكا؟

- صحيح اننا نعمل معاً ولكن هذا لا يجبرنا على المشاركة في الحياة لاجتماعية.

تقطب وجهه فجأة ورمقها بنظرة تحد قائلاً:

- يبدو انك لا تحبين كشف اوراقك كاملة.

- هذا ينطبق عليك ايضاً.

- هذا صحيح، فأنا احب الاحتفاظ ببعض الأسرار وخاصة الممتع منها، كالليلة الرائعة التي قضيناها في احد اكواخ الزعيم سدريك مثلاً.

اغاظتها طريقته في الكلام عن تلك الأمسية المشؤومة، فعلا الاحمرار وجهها من شدة الغضب ومدت يديها تمسك بطبق امامها متمنية لو تضربه به. لكنه ابتسم وكأنه ادرك ما

يجول في رأسها وقال:

- هل ستتلفين طبقاً جيداً كهذا يا جسيكا؟

استدارت نحو النافذة تذرف دمعاً لم تقو على حبسه في مقلتيها، وقالت بصوت يخنقه الغضب والحسرة:

- من الحساسة ان تأتي على ذكر تلك الليلة.

- لا انكر اني ابدو في بعض الأحيان فظاً وحقيراً، وهذا يعود لصراحتي المفرطة. هل سبق وأخفيت عنك ما يدور في خلدي تجاهك؟

لم يعطها فرصة لتجيب على سؤاله، بل تقدم منها بسرعة وأمسك بكتفيها برفق، فشعرت بالارتياح وتمنت لو تستسلم مرة اخرى لتلك الأحاسيس الرائعة التي ترافق ملامسته لها. لكنها وبعد كل ما حدث لم تعد تجرؤ على ذلك.

- ارجوك يا دان، انا...

لم يدعها تكمل عبارتها وأدارها نحوه باسطاً لها يده:

- هدنة؟ سنعلن هدنة هذه الليلة اذا اردت، وغداً بامكانك ان تنعتيني بما يحلو لك من صفات.

ترددت لبرهة في الاجابة قبل ان تضع يدها في يده موافقة:

- حسناً، لكن ارجو ان تفهم اني قبلت اقتراحك حتى لا ازيد من هموم والدي.

- اني اتفهم موقفك... يا لنعومة هاتين اليدين الجميلتين!

ادركت انها ارتكبت خطأ فادحاً في تسليمه يدها وحاولت سحبها من براثن قبضته. لكنه شد على معصمها ومرر اصبعه بحركات ناعمة على راحة يدها، فتلاشت مقاومتها بسرعة وكادت ان ترتمي مجدداً بين ذراعيه لكنها استطاعت في اللحظة الأخيرة ان تفلت يدها، وتبتعد عنه هامسة بصوت يقارب الحشرجة:

- لا تفعل هذا!

انحنى امامها بحركة هازئة:

- ارجو ان تقبلي اعتذاري. الن تتركي العمل وتوافينا الى غرفة الجلوس؟

اومأت برأسها ايجاباً بعد ان استعادت بعضاً من هدوئها:

- لبضع دقائق فقط، فالعشاء سيفسد ان ترك مدة اطول هنا.

مرت بقية السهرة بسلام، وزع دان اثناءها اهتمامه بين جوناثان واميليا بطريقة زادت من اعجابها به. فبالرغم من شغف الدكتور نيل بالكلام عن جراحة الأعصاب، تمكن دان من اختصار الحديث متجنباً ازعاج اميليا، وخاض معها في مواضيع تروقها وتثير اهتمامها. بقي في كامل تهذيبه ولياقته حتى اللحظة الأخيرة، وما ان دقت الساعة العاشرة حتى نهض مستأذناً للانصراف. حاولت اميليا ثنيه عن قراره لكنه اعتذر بلطافة:

- اعلم ان الوقت ما زال باكراً، لكن امامكما رحلة طويلة في الغد.

رافقته جسيكا الى الخارج، متعجبة من صمته المفاجىء. لقد تصرفا بتودد امام والديها وتبادلا اطراف الحديث معهما، وفجأة لم يعد هناك ما يقولانه لبعضهما. وصلا الى السيارة الغارقة في الظلام، فأمسك بيديها هامساً:

- تصبحين على خير.

ادركت انه يعلن نهاية الهدنة، فسحبت يديها من يديه وتراجعت عدة خطوات تبحث عن الأمان:

- طبت مساء يا دان.

اطلق احدى ضحكاته الساخرة فتردد صداها في ارجاء الحديقة، ومضى يشق طريقه بسرعة هائلة.

ما ان انضمت الى والديها في غرفة الجلوس حتى بادرتها اميليا قائلة:

- تصرفك الليلة يخالف ما قلته عن علاقتك بدان يا جسيكا.

اجابت الابنة بحذر:

- اننا نتفق احياناً وليس دائماً.

- اظنه شاباً لطيفاً للغاية. اليس كذلك يا جوناثان؟

اجاب الوالد وهو يملأ غليونه:

- كلمة لطيف ليست الصفة المناسبة لشخص مثل دان يا اميليا.

- كيف تصفه اذن؟

- لا اعلم، فأنا كما تعلمين لا اجيد اختيار الكلمات المناسبة.

قاطعتهما جسيكا مقترحة:

- لنقل انه يجمع بين الذكاء الخارق والتعجرف ليحصل على ما يريده

في الحياة.

- ارى انك تظهرين بعض الكره بالرغم من دقة وصفك له. انه ولا شك حاد الذكاء، لكن من الطبيعي ان يحتاج المرء بعضاً من الكبرياء في هذه الدنيا.

تنهدت جسيكا بمرارة:

- قد تكون على حق يا والدي.

التفتت اليها اميليا قائلة:

- آمل ان تدعيه الى هنا عندما نأتي مرة اخرى.

- ان كنت معجبة به الى هذا الحد فسأفعل ما تطلبينه يا امي.

- انك تحيرينني يا جسيكا. دان ترافورد هو اروع رجل رأيته منذ زمن طويل.

- اني اوافقك الرأي.

- الرجل لا يعير الزواج اهتماماً الا عندما تدفعه المرأة المناسبة الى ذلك.

هتفت جسيكا بيأس:

- ومن قال لك اني هذه المرأة المناسبة التي ستجعل دان يفكر بالزواج؟ عدا عن اني لست مهتمة بالمحاولة.

نهض جونائان عن كرسيه مقاطعاً:

- انه جواب كاف لانهاء النقاش. سآوي الى الفراش.

قامت اميليا بدورها قائلة:

- انتظرني يا جونائان (وتطلعت الى ابنتها بشفقة مردفة) اتمنى لو استطيع فهمك يا جسيكا.

في الاسبوع التالي، شغل العمل جسيكا عن مكالمة دان، فأمضت معظم امسياتها في المستشفى، ولم ترتد منزلها الا نادراً لتنل بضع ساعات من النوم والراحة.

وصلت الى مسكنها مساء الجمعة آملة بقسط من الراحة بعد نهار طويل قضته في المعاينات واستقبال المرضى. لكن آمالها تبخرت عندما رأت سيارة غريبة متوقفة امام المنزل، ترجلت منها سيدة غريبة، طويلة القامة تتمتع بجمال وسحر خارقين، وتقدمت من جسيكا سائلة بصوت ناعم:

- دكتورة نيل؟

رمقتها جسيكا بنظرة شاملة قبل ان تجيب:

- نعم.

سلطت الزائرة الغريبة عينيها الخضراوين على جسيكا بطريقة وقحة قائلة:

- كنت آمل ان اراك. انا سيلفيا سامرز.

عقدت المفاجأة لسان جسيكا:

- آه!

- اخالك قد سمعت باسمي من قبل.

نجحت جسيكا في اخفاء اضطرابها وأجابت بهدوء مصطنع:

- اعتقد ان الدكتور ترافورد اتى على ذكرك. تفضلي بالدخول.

راحت جسيكا تتأمل ضيفتها الفاتنة الجالسة على الأريكة في مواجهتها. جمالها لا يخفى على احد وانوثتها البالغة تسلب العقول والألباب، ولا عجب من ان تتفق رجولة دان الجذابة مع هذه التحفة البديعة. وبعد سكوت سألتها بتهذيب:

- هل من خدمة اؤديها لك يا آنسة سامرز؟

وضعت الزائرة رجلاً فوق الأخرى وأجابت:

- ليس انت من سيؤدي الخدمة بل انا يا دكتورة. اعتبري ما سأقوله الآن نوعاً من التحذير.

همت جسيكا بالاعتراض:

- آنسة سامرز، اظنك...

قاطعتها سيلفيا بهدوء:

- لا تسيئي فهمي. لست هنا لألعب دور عاشقة تلتهمها الغيرة أو لأخدش عينيك لمحاولتك سلبي ما اعتبره خاصاً بي. جئت لأحذرك من ان زواجك من دان حلم لن يتحقق ابداً، فهو لا يصلح لذلك. وان كنت تظنين ان تحولك الى صديقة له سيمهد لك الطريق للنفاذ الى قلبه فأنت مخطئة. قد تدوم علاقتكما سنة أو سنتين وبعدها تتحولين الى صفحة بالية في دفتر ذكرياته. هذا هو دان ترافورد، وتقييده بسلاسل الزواج يحتاج الى امرأة خارقة تعرفه حق المعرفة.

ادركت جسيكا ان محدثتها لم تعنها هي بعبارتها الأخيرة، فهي منذ لقائها

دان تستعد لهذه الصدمة لكنها لم تتوقع ان تكون بهذه القوة.

- ما الذي دفعك للاعتقاد بوجود علاقة بيني وبين دان؟

- دان اخبرني بذلك، ولا شك في انك بت تعلمين انه ليس من الذين يتلهون بالكلام، وعندما ينوي انهاء علاقة ما، فهو يعلن ذلك بكل بساطة ومن ثم يذكر الأسباب.

- دان اخبرك بوجود علاقة بيني وبينه؟

ابتسمت سيلفيا ببرودة:

- كلا، لكنه قال ما يعني: «اريدها وسأحصل عليها»، فكوني على حذر يا صغيرتي. أنت هدفه الآن وان لم تتصرفي بذكاء فستتلقين ضربة موجعة للغاية.

- تتكلمين وكأنني طريدة سهلة المنال!

- بل هو الصياد البارع (ونهضت عن مقعدها ترمق جسيكا بنظرة ساخرة وأردفت) امر مضحك... لم اخله سيء الاختيار الى هذه الدرجة.

قطع الصمت الذي خيم بينهما هدير سيارة توقفت امام الباب، ووقع خطوات سريعة تقترب من المدخل.

- جسيكا... هل انت في الداخل؟

جمدت جسيكا في مكانها وقد عرفت صوت القادم فالتفتت الى ضيفتها لتلقاها متجهمة الوجه عرضة للارتباك.

التقت عينا دان بعيني جسيكا للحظات طويلة قبل ان يلتفت الى سيلفيا قائلاً بنبرة باردة:

- ظننتك عائدة الى بريتوريا.

- هذا صحيح، فأنا على وشك الرحيل (ولوحت بيدها ضاحكة) استمتعا بوقتكما.

مرت بمحاذاتهما متجهة نحو الباب، مخلفة وراءها رائحة عطرها الذكية كحاجز بينهما.

ران الصمت على الغرفة لفترة قبل ان يقطعه دان قائلاً:

- لم اتوقع ابداً ان تأتي الى هنا. ماذا اخبرتك؟

لم تكن في حالة تسمح لها باعادة ما دار من حديث بينهما، فاكتفت بالاجابة بعصبية:

- لم تحمل اخباراً جديدة.

اصر دان على سؤاله:

- هذا يترك مجالاً واسعاً للخيال، ومن الأفضل ان تخبريني.

- لا اخالك بحاجة للايضاح فيما يتعلق بشخصيتك، لكني سأطلعك على رأيي فيك (واستدارت ناحيته بعينين تقدحان شرراً وأردفت) انت سافل ومتوحش، وكل ما احسه تجاهك الآن هو الازدراء والكره.

- اذن انت الآن تكرهينني، اليس كذلك؟

بدا كفهد شرس يستعد للانقضاض على فريسته، فانكمشت على نفسها تترقب هجومه. لكن شيئاً لم يحصل، بل جمد كل منهما في مكانه اثر سماعهما رنين الهاتف في زاوية الغرفة.

تنفست الصعداء وتراجعت عدة خطوات من غير ان ترفع نظرها عنه ورفعت السماعة مجيبة:

- الدكتورة نيل تتكلم. ما الأمر يا سوزان؟

اصغت جسيكا بانتباه الى محدثتها ثم اعادت سماعة الهاتف الى مكانها بعجلة، واستدارت ناحية دان فلم تجده. فاستقلت سيارتها واتجهت مباشرة الى المستشفى. لم تر دان بمثل هذا الغضب من قبل، وارتجفت يداها على المقود لحظة تفكيرها بما كان سيحصل لو لم يرنجدها رنين الهاتف في الوقت المناسب. قادت السيارة كالمجنونة دامعة العينين، دامية القلب، تفكر بكلام سيلفيا عن الرجل الذي بالرغم من كل ما سمعته عنه وذاقته منه، بقيت حتى اليوم تحتفظ بنذر قليل من الأمل في صدق شعوره نحوها. لكن الأمل تبخر الآن، وزالت معه صور مشرقة لمستقبل كانت معالمه قد بدأت ترتسم امام عينيها.

قضت جسيكا عدة ساعات في غرفة العمليات، تجري عملية ولادة قيصرية لأحدى السيدات. وتوجهت بعدها مباشرة الى مكتبها بعد ان اعطت تعليماتها الى الممرضات للاهتمام بالطفل وأمه خلال الليل.

لاحظت احدى الممرضات علامات الارهاق على وجهها فتقدمت منها سائلة:

- تبدين هزيلة هذه الليلة يا دكتورة، هل اكلت شيئاً هذا المساء؟

- لم تسنح لي الفرصة بعد.

- هذا ما ظننته. سآتيك بالعشاء الى هنا.

عادت الممرضة بعد قليل تحمل فنجاناً من الشاي وبعض السندويشات، وضعتها على المكتب وغادرت الغرفة تاركة جسيكا غارقة في مقعدها مغمضة العينين، شاردة الذهن. نظرت الى نفسها في المرآة فبدت نحيلة متعبة بعكس سيلفيا ذات الجمال الباهر والاطلالة الساحرة. لن تفوز ابداً بقلب دان وحبه، ولن تكون ابداً تلك المرأة الخارقة التي تكلمت عنها سيلفيا سامرز... اكتفت بتناول قطعة صغيرة من الجبن، ثم حملت حقيبتها وغادرت مكتبها بخطى متثاقلة بطيئة باتجاه مرآب السيارات. كل ما تحتاجه الآن هو ان ترتمي في سريرها لتنعم بقليل من الراحة بعد هذه الليلة المضنية...

وصلت الى منزلها بعيد منتصف الليل، فترجلت من السيارة بسرعة مهرولة نحو الباب. وما ان همت بالدخول حتى فوجئت بصوت دان هامساً خلفها:

- جسيكا؟

لم تحرك ساكناً، تراقبه قادماً من الظلمة بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين. وتملكها الخوف عندما لاح لها وجهه الباسم فوضعت يدها على فمها تخنق صيحة كادت تفضح امرها.

- اعتذر عما سببته لك من خوف.

حدقت في عينيه الرماديتين تعكسان النور القادم من الداخل وسألته بحيرة:

- ماذا تفعل هنا وفي مثل هذا الوقت؟

- يجب ان اكلمك.

- الا يمكن ارجاء ذلك الى الغد؟

- ما اريد قوله لا يحتمل التأجيل.

اغلقت الباب خلفه وتبعته الى غرفة الجلوس حيث رمت حقيبتها على احد المقاعد ووقفت تعبث بشعرها متثائبة:

- قهوة؟

- ليس الآن. جسيكا، جئت لأوضح لك...

التقطت انفاسها تتحضر للمناقشة وعلقت ضاحكة:

- توضح لي؟ لا اعتقد ان هناك شيئاً يستحق التوضيح.

- يراودني شعور بأن سيلفيا لم تخبرك بالحقيقة كاملة.

- يكفيني ما سمعته يا دان، سبق وقلت لي مراراً انك تريدني وسيلفيا كشفت لي عن عزمك لاستدراجي الى علاقة معك تسهل عليك الحصول على مرامك.

علت ضحكة مدوية لتزيد من غيظها:

- هل هذا ما قالته لك؟

- بربك يا دان، هل تريدني ان اعيد حرفياً ما قالت؟

- لا بد من ان اعرف تماماً ما نسبته من اقوال الي.

- حسناً، فيما يتعلق بي، قلت لها انك تريدني وستحصل علي مهما كلف الأمر (ورمقته بنظرة تحد متابعة) وبالمناسبة اود ان الفت انتباهك الى انك لن تنجح ابداً في مسعاك يا دان. تظن نفسك قادراً على اختيار اية امرأة تريد وبالسهولة نفسها التي تختار ثيابك. فاعلم ايها المتعجرف اني سأخيب املك...

- جسيكا...

- اياك ان تلمسني. حظي السيء هو الذي جمعني برجل مهاتر وعديم الاحساس مثلك. والآن اطلب منك الانصراف حالاً.

تبدلت ملامح وجهه فجأة وتطاير الشرر من عينيه:

- لن ارحل من هنا قبل ان اقول ما جئت لأجله.

- لا احفل اطلاقاً بما ستقول...

لم يمهلها فرصة اخرى بل انقض عليها ممسكاً بذراعيها وضمها اليه بقوة خارت معها قواها فأحست بحاجة الى البكاء. وهي تحدق بعينيه المتأججتين بنيران الغضب.

- ان كانت كلماتي لا تفي بالغرض يا جسيكا فسأجرب وسيلة اخرى.

فانتفضت كالمجنونة تحاول التخلص من قبضتيه من غير فائدة. لم يحفل بالدموع الساخنة التي بللت وجنتيها. ولم يدعها الا بعد ان شل كل مقاومة فيها فأبعدها عنه قائلاً:

- والآن، هل ستستمعين الى ما سأقوله؟

وقفت قبالته ترتجف كورقة يابسة، تكفكف دموعها بعصبية.

- اكرهك يا دان ترافورد! اكرهك. هل تسمعني!

- هل توافقين على الزواج مني يا جسيكا؟

سرت نفحة من الغضب في انحاء جسمها وصاحت بيأس:

- هل جننت؟ تعرض علي الزواج الآن لانك عجزت عن نيل مأربك مني بالطرق الأخرى؟

- لم افكر بطرق اخرى يا جسيكا.

رفعت يداً مرتعشة تمسح دموعها ونظرت اليه تتمنى ان تصدقه. لكن وجهه القاسي خلا من اية مسحة حنان أو عطف.

- انك لا تعي ما تقول يا دان، وتظن انه بامكانك اقناعي بمثل هذه الكلمات. اقر بأنك واسع الحيلة. تعرف متى ترمي شباكك لكني للأسف لن اقع فيها.

افقده كلامها صوابه فرفع قبضته فجأة وهوى بها على حافة الأريكة القريبة:

- ويحك يا جسيكا! لماذا لا تصدقينني؟

- هل تذكر محادثتنا يوم استدرجتني الى منزلك لتناول العشاء؟ سخرت ليلتها من فكرة الزواج وأوضحت لي انك تريدني... كصديقة لك. رفضت عرضك ساعتها، فامضيت عطلة الاسبوع التالية مع سيلفيا سامرز.

- اؤكد لك...

تابعت كلامها وكأنها لم تسمعه:

- بعدها سألتني بكل وقاحة ان اقول نعم حتى تلغي سيلفيا سامرز من حياتك. ولا تسألني عن رأيي في رجل يتصرف بهذه الخساسة مع امرأة تقاسمه شقته وتمضي برفقته اياماً حميمة؟

- لم المسها قط.

ارتسمت ابتسامة هازئة على شفتيها:

- اهذا صحيح؟ اتتوقع مني تصديق ذلك؟

- حاولت تجاهل ما احسه نحوك، لكني لم اقدر. كنت بيني وبينها طوال الوقت وصورتك في عيني كيفما تحركت. صدقيني يا جسيكا لم اقو حتى على لمسها.

تغيرت ملامحه فجأة وغشت عينيه مسحة من البراءة والصدق، جعلتها فريسة الاضطراب من جديد، فاغمضت عينيها تنصت اليه متابعاً كلامه:

- اخبرتها بعزمي على انهاء علاقتي بها لكنها لم تصدقني. وجاءت الى منزلي بعد ظهر اليوم من غير ان ادعوها، فاطلعتها على الحقيقة كاملة بطريقة اعترف انها كانت قاسية وفظة بعض الشيء.

سألته بنبرة تقارب الحشرجة:

- هل قلت لها انك تريدني؟

- قلت لها اني اريد الزواج منك (لاحظ دهشتها فابتسم مردفاً) اردت ان اكون صريحاً وعادلاً معها ولكنها لم تبادلني حسن الصنيع. فسعت جاهدة لاظهاري بمظهر الكاذب امامك.

- لماذا تريد الزواج مني؟

- لأنك امرأة متفوقة ومختلفة يا جسيكا ومنذ البداية كنت بمثابة تحد بالنسبة الي. لست خارقة في الطب وحسب بل ايضاً في قيادة الطائرات، وكان علي ان اكتشف الناحية الانسانية فيك. سخرت منك لأنك تقحمين عاطفتك في معالجتك للمرضى لكنك علمتني ما كنت اجهله، وأدركت ان في الطب ما هو ابعد من الدواء والجسم العليل. بسببك صرت اعي اهمية الناحية النفسية لدى المريض، واكثر ما اعجبني فيك شجاعتك و... (تقلصت عضلات وجهه فجأة وبان الخوف في عينيه وكأنه تذكر شيئاً فتابع بارتباك) يا الهي، لم اخف في حياتي كلها كما في ذلك اليوم الذي تسلقت فيه تلك الشاحنة لمساعدة السائق المحجوز في مقصورته. اصبت بالهلع يومها بمجرد تفكيري باحتمال انزلاق الشاحنة وأنت بداخلها، ففقدانك يحول حياتي قفراً مقيتاً يا جسيكا، صدقيني.

تركت انامله تعبث بخصرها، تشعر بفيض من الفرح يغمرها وأدنت جسمها منه مطلقة تنهيدة طويلة:

- دان...

تقرب منها هامساً بصوت عذب صادق:

- احبك يا جسيكا.

كانت تظن انها لن تسمع هذه الكلمة منه، وها هو الآن يقولها بحنان كما تمنتها وحلمت بها.

ـ احب كل شيء فيك، مشيتك والبحة التي تنتابك حين تضطربين. احب هاتين العينين الرائعتين تنشران السعادة حين تضحكين واحبهما تقدحان شرراً عندما تغضبين (ورفع رأسه فجأة وتسمرت عيناه في عينيها وكأنه يحاول النفاذ الى مكنونات صدرها وتابع بالنبرة الحنونة نفسها) اشفقي علي يا جسيكا، فأنا لم احس بحاجتي الى حب امرأة كحاجتي الآن، ولا سبق ان ربطت مصيري بحب كما افعل الآن.

ادهشها ما تسمعه منه فلم تقو على الكلام، ولكن الشك في قلبها بان بجلاء في عينيها، فزمجر خائفاً مما يراه:

ـ ارجوك يا جسيكا، لا تعذبيني هكذا.

ـ احبك. الم تلاحظ ذلك في مناسبات عديدة؟

لمعت عيناه فرحاً وانفرجت اساريره:

ـ كيف لي ان اتأكد وأنت لم تقولي كلمة واحدة؟

ـ وأنت ايضاً لم تقل شيئاً.

ـ اخبرتك باني اريدك.

ـ لم يكن كلامك مشجعاً وخاصة بالنسبة الى فتاة مثلي، تحترم مبادىء معينة في الحياة. لكني لا اخفي عنك اني اصبحت جشعة فيما بعد وأردت الحصول على اضعاف ما تعرضه علي.

ـ اظن انك ستحصلين على اكثر مما كنت تتوقعين يا حبيبتي.

وضمها اليه بحنان، فاسندت رأسها بارتياح الى صدره الدافىء. وأحست بلهاثه يتسارع حول اذنيها، لكنه لم يحاول التمادي محجماً عن احراجها كما في السابق، فارتمى على الأريكة وجذبها الى جانبه قائلاً:

ـ تلك الليلة في فندا، وبعد رقصة الأفعى لم انو احراجك، لكن...

ـ اعلم ذلك. لقد كانت ليلة سحر مجنونة، وما كنت لأشعر بالخجل مما اقدمت عليه لو كنت اعلم حينها ان حبك لي يوازي حبي لك. لكني ظننت..

اكمل العبارة عنها مبتسماً بسخرية:

ـ لو لم تأت الممرضة رافيل لكنت علمت ليلتها كم احبك يا جسيكا.

ـ انقذتني بمجيئها من موقف حرج للغاية.

ـ اتظنين ان والديك سيعترضان على زواجنا ان قررناه يوم

السبت المقبل؟

ـ لا اعتقد ذلك ولكن، ماذا عن عملي مع بيتر؟

ـ لا مانع لدي في ان تتابعي عملك حتى نهاية العقد.

شبكت يديها حول ساعده تسأله برقة:

ـ وبعد ذلك؟

ـ سندع للوقت الاجابة على ذلك.

ورفع رأسه ينظر اليها بعينين تشعان حناناً حتى احست بعظامها تذوب تحت تأثيرهما وتابع قائلاً:

ـ اتظنين ان والدك سيكتفي بالقطيع الذي اهداني اياه الزعيم سدريك ليكون بمثابة مهر لعروسي؟

عقدت حاجبيها بدلال محببة:

ـ لا تكن سخيفاً يا دان، فهو لا يولي هذه الأمور اية اهمية. بالمناسبة، ماذا فعلت بذلك القطيع؟

ـ اعطيته لجوناس الخادم الذي يعمل في منزلي منذ سنوات، واقترحت عليه ان يبادر الى الزواج من امرأة تجيد الاهتمام بالمنزل والاعتناء بالأطفال في حال اردت ممارسة الطب بعد زواجنا.

دفنت وجهها في صدره متمتمة بتأثر:

ـ آه يا دان، كم احبك!

رفع وجهها بيده يتأملها:

ـ لم اعد احتمل غياب وجهك عني. لقد توردت وجنتاك...

ـ اعلم ذلك، فأنا لم اعتد بعد التغلب على تأثير كلماتك في.

تذكرت كلام الزعيم سدريك عن الدوما وتشبيهه الرجل عند البحث عن عروسه ... «انه يزداد شراسة ونهماً كلما تمعن في بحثه ولا يترك لفريسته فرصة للهرب حينما يوجه ضربته».

ـ دان، حبيبي ارجوك...

اتكأ على مرفقه مسلطاً عليها نظرات جامحة:

ـ اتطلبين مني التوقف؟

ـ اكثر ما يسعد الفتاة العاشقة هو ان تكون بين ذراعي حبيبها، تسند رأسها الى صدره وتستمع الى كلمات قلبه. انا لا ابحث عن المتعة بقدر ما

ابحث عن سعادة الروح، ويكفيني ان تضمني الى صدرك وتهمس لي بكلمات عذبة حتى انسى كل ما حولي.

- احبك...

- قل لي يا دان، هل ازعجك طلبي منك بالتوقف؟

حدجها بنظرة ملؤها الحب والحنان:

- بل على العكس، انت على حق في كل ما قلته. حان موعد النوم، ولست على استعداد لأن ابدأ حياتنا باستغلال فتاة تكاد تنهار من شدة النعاس.

مرر انامله بنعومة على خديها وهمس مودعاً:

- سأراك غداً يا ملاكي.

وتناول سترته وخرج مغلقاً الباب خلفه بهدوء.

أوت الى سريرها تحضن صدى كلمات دان العذبة الرقيقة، تحلم بالمستقبل وما يحمله من احلام وآمال. غداً ستشرق شمس جديدة حاملة معها حرارة الحنان ودفء السعادة، وستفتح لها ذراعيها مرحبة وتدفن في طيبها مرارة الماضي ودموعه، وتضيء بنورها شموع الأمل والحب...